أحلام شهرزاد



طه حسين

أحلام شهرزاد

اقرأ ١

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وانطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

تقــدمة

عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات ، في جميع الأمم والشعوب ، وفى الشعوب العربية بوجه خاص ، بل هو خير ما وجه إلى الانسان منذ تحضر إلى الآن .

وبهذا الفعل القصير الخطير بدئ تنزيل القرآن ؛ فكان أول ما خوطب به النبي (ص) وخوطب به الناس من بعده ، هو هذا الأمر الكريم بالقراءة . ونحسب أن هذا هو الذي دعا صديقنا أحمد بك أمين إلى اختيار هذا العنوان لهذه السلسلة فآزرناه كلنا مسمين به ، مجمعين عليه .

وكان صاحب المنطق — كما يسميه الجاحظ — يقول إن الإنسان حيوان ناطق ، وكان النطق عنده ، فيما حدثنا فلاسفة ، يشمل من إدراك الانسان في اسم المنطق لدى [illegible] ما في حس محدث . كان النطق عند أرسطاطاليس يدل على التفكير والتعبير جميعاً . ولكن أرسطاطاليس حين يعرف الانسان بأنه حيوان ناطق فحسب ، وقد وصفه بذي نطق كما ترجم القدماء ، أو بأنه حيوان ناطق كما يترجم المحدثون .

وما نعرف شيئاً يحقق إنسانية الانسان بتفكيره وتعبيره وهدايته ، كالقراءة . فنحن نتصور التفكير على أنه أصل لكل ما نقرأ ، وعلى أنه غاية لكل ما نقرأ . فالكاتب يفكر قبل أن يكتب ، وأثناء كتابته ؛ والقارئ يفكر [illegible] وأثناء قراءته ، وبعد أن يقرأ .

وكذلك يمضي الانسان في تحقيق هاتين الخصيصتين اللتين تميزانه وتضعانه حيث أراد الله له أن يكون من التفوق والرقي ، وهما العقل والمدنية . فهو

أمر الله الإنسان بأن يقرأ ، فإنما يأمره بان يطمح إلى الكمال ، ويسعى إليه . وإذا كانت القراءة أخص مميزات الحضارة ، تكثر وتنتشر إذا اتسعت الحضارة وارتقت ، وتقل وتتضاءل إذا ضاقت الحضارة وانحطت ، فقد يكون من أيسر التعبير وأوجزه فى يوم من الأيام أن تختصر الطريق ، وأن يعرف الانسان بأنه حيوان قارىء دون أن يكون فى هذا التعريف تجاوز لما قصد إليه أرسطاطليس .

وكانت القراءة فى أول أمر الانسان مقصورة على قلة ضئيلة من الناس فى كل شعب من الشعوب المتحضرة . وكان رقى الحضارة واتساعها يدعوان إلى شيوع القراءة وانتشارها ، حتى كان هذا العصر الحديث ، وحتى كانت الديمقراطية التى أخذت تلغى الفروق والامتيازات وتقرب مابين الطبقات .

وإذا القراءة تصبح حقاً شائعاً لكل إنسان بل واجباً محتوماً على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة . وإذا الدول تشعر بهذا الحق وتفرض على نفسها أو تفرض عليها الشعوب تعليم القراءة لكل فرد من الناس دون أن تتقاضى على ذلك منه أجراً . ونحن نعلم أن الدول إنما تعلم أبناء الشعب هذه القراءة الآلية وقليلا جداً مما يهيئهم للقراءة التى ترقى العقل ، وتنقى الطبع ، وتصفى الذوق ؛ ولكن القراءة على كل حال هى الطريق الطبيعية الميسرة لرقى العقل ، والطبع ، والخلق ، والذوق ؛ وحينما انتشرت القراءة طلب الناس ما يقرأون وتنافس الممتازون منهم فى أن يقدموا إليهم ما يقرأون ، ونشأ عن هذا كله ما نعرفه من قوة الحياة العقلية وخصبها ، وما ينشأ عنها من نتائج لا تحصى فى حياة الناس ، وقد أخذت الدولة فى الشرق تعلم الناس القراءة ، وأخذ الناس يطلبون ما يقرأون ، وأخذ الكتاب يتنافسون فى أن يقدموا إليهم ما يقرأون .

وليس الانسان ناطقاً بطبعه ، ولا اجتماعياً بطبعه فحسب ؛ ولكن الانسان كسل بطبعه أيضاً ؛ فهو مشوق بطبعه إلى الرقى . ولكنه مدفوع بطبعه

إلى حب اليسر ، وإيثار السهولة ، وتجنب الجهد الشاق ما وجد إلى ذلك سبيلا . وهو محب للقراءة ما فى ذلك شك ، ولكنه يريد أن تيسر له هذه القراءة ، ووجوه التيسير كثيرة مختلفة ، أخطرها وأعظمها ضرراً هو الذى يشيع وينتشر مع الأسف الشديد . فالكلام السهل اليسير المبتذل القريب الذى ينتشر فى الصحف السيارة التى يكفى الانسان أن يمد يده ليتناولها ، وفى الكتب الرخيصة التى يحصلها القارىء دون أن يشق على ماله ويقرأها دون أن يشق على عقله .

هذا الكلام هو الذى يتهافت عليه القراء بحكم هذه الخصلة الطبيعية فى تكوينه ، وهى خصلة الكسل ، وإيثار الهين من الأمور . فلا بد إذاً من أن تقاوم هذه الخصلة ما استطاع المثقفون مقاومتها ، ولا بد من أن تقرب القراءة الممتعة الخصبة إلى الناس حتى يستطيعوا أن يقرءوا فى غير مشقة على عقولهم ولا على أموالهم .

وليس كل ما ينتجه العقل الانسانى ميسر القراءة للناس . فهناك الممتازون فى الثقافة . ولكن هناك أصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب ثقافة متواضعة . وليس من اليسير أن يسيغ أولئك وهؤلاء ما يكتبه الممتازون من الفلاسفة والعلماء والأدباء . وليس من الحق ولا من العدل أن يحرم أولئك وهؤلاء خير ما يثمره العقل الانسانى من الانتاج . فلا بد إذاً من أن يأخذوا منه بحظ ما ، لا بد من أن يرتفعوا إليه شيئاً ومن أن يهبط هو إليهم شيئاً ، حتى يكون هذا اللقاء الخصب الذى يعم به نفع العلم والفلسفة والأدب .

وكل هذه الملاحظات دعت إلى التفكير فى إنشاء هذه السلسلة من الكتب القصيرة اليسيرة الرخيصة التى يسهل شراؤها وتهون قراءتها ويقرب الانتفاع بها والاستمتاع بما فيها ، ولا يشق ثمنها على أوساط الناس ولا على فقرائهم .

فهذه السلسلة جهد من الجهود التى تبذل فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات ، وهى نتيجة طبيعية لهذا التطور الذى نحن

فيه من أطوار حياتنا . وفى الأرض أمم سبقتنا فى هذا العصر الحديث إلى الرقى وقطعت فيه أشواطاً لم نقطعها بعد ، وهى مع ذلك بل من أجل ذلك تنشىء أمثال هذه السلسلة وتبذل فى إنشائها وإذاعتها وتيسيرها جهوداً عظيمة موفقة . فكيف بنا وحاجتنا إلى هذا التيسير أشد من حاجتها ، وضرورات الحياة الحديثة تفرض علينا أن نقطع أبعد الآماد إلى الرقى فى أقصر الأوقات لنستدرك ما فاتنا ولنبلغ حقنا من المساواة بيننا وبين الشعوب المتفوقة .

والنية فى هذه السلسلة أن تكون على يسرها وقربها متنوعة أشد التنوع وأنفعه . فهى تنشر المؤلفات الحديثة كما تنشر الآثار القديمة ، وهى تنشر الآثار التى تؤلف كما تنشر الآثار التى تترجم . وهى تنشر من هذا كله فى كل فرع ممكن من فروع الانتاج العقلى فى الأدب الانشائى وفى الأدب الوصفى ، فى العلم الخالص وفى العلم التطبيقى ، فى السياسة ، فى التاريخ ، فى العمران والاجتماع ، فى كل لون من ألوان هذا النشاط الذى يجعل العقل الانسانى منتجا فى جميع فنون المعرفة . ذلك لأن الذين عنوا بانشاء هذه السلسلة ونشرها لم يفكروا إلا فى شىء واحد هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية وأن ينتفعوا وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

وكل ما نرجوه هو أن نوفق إلى تحقيق بعض هذه الغاية .

١٥ يناير سنة ١٩٤٣

أحلام شهرزاد

فلما كانت الليلة التاسعة بعد الألف أفاق شهريار من نومه مذعوراً ، وجعل يتسمع لعله يجد ذلك الصوت الذى أيقظه فلم يسمع شيئاً . وجعل يمد يده عن يمين ويمد يده عن شمال ليتبين أينكر من مضجعه شيئاً فلم ينكر شيئاً . ثم استوى جالساً فى سريره وجعل يدير رأسه عن يمين وعن شمال ويمد بصره فى الظلمة المتكاثفة من حوله كما يمد سمعه فى الصمت المنعقد فى غرفته ، فلا يقع بصره على شىء ، ولا ينتهى سمعه إلى شىء ، ولا تصل نفسه إلى شىء . فلم يشك فى أن طائفاً قد ألم به أثناء النوم فرده إلى اليقظة رداً لم يخل من بعض العنف . وما أكثر ما تهيم فى ظلمات الليل هذه الأرواح المشردة التى تنطق فى لغاتها الخفية بألفاظ تصل إلى نفوس الرقود أحياناً كما تصل إلى نفوس الأيقاظ أحياناً أخرى ، فيفهمون منها مرة ويخطئون الفهم مرات ، ويكون لهذه

الألفاظ الغريبة المبهمة فى حياة الناس آثار غريبة مختلطة منها الخير ومنها الشر . ومهما يكن من شىء فقد عاد شهريار إلى نفسه وارتسمت على ثغره ابتسامة سريعة لم تلبث أن مرت كأنها البرق ، وثارت فى نفسه عاطفة ضئيلة ولكنها حادة ، فيها شىء من حسرة ، وفيها شىء من يأس ، وفيها شىء من حزن على عهد قد انقضى وليس إلى رجوعه من سبيل . ثم ثاب إلى الملك رشده فتمكن فى مضجعه وأغمض عينيه وضم يديه إلى صدره ودعا النوم إلى نفسه دعاء قويا . وكأن النوم كان ينتظر أن يبلغه هذا الدعاء ، فما أسرع ما مد ذراعيه فطوق بهما عنق الملك الحزين فى كثير من الرأفة والرحمة والحنان ، وإذا الملك ينسى نفسه ويمعن فى هذا الرقاد الحلو الهادئ المطمئن . ولم يدر الملك أطال هذا الرقاد أم قصر ، ولكنه أفاق مرة أخرى مذعوراً ومد بصره فى الظلمة المتكاثفة ومد سمعه فى الصمت المنعقد وتحسس بيديه عن يمين وشمال ، فلم ير شيئاً ، ولم يسمع شيئاً ، ولم ينكر شيئاً أنكر نفسه كلها ، ونهض من مضجعه متثاقلا ، فجعل يمشى فى غرفته على غير هدى ، حتى انتهى إلى نافذة من نوافذ الغرفة ففتحها ، وكان ذلك إذنَ لضوء القمر فى أن ينسلّ فى هذه الغرفة . ولكنه

لم ينسلّ وإنما اندفع إلى الغرفة اندفاعاً أضاء له كل ما فى الغرفة من فضاء ومن أثاث . هنالك أدار الملك بصره فى الغرفة فلم ينكر من أمرها شيئاً ، ثم أشرف من النافذة فاستنشق الهواء الطلق ومد بصره فى الفضاء العريض المنبسط أمامه ، فلم ير إلا هذه الأشجار الباسقة الشاهقة فى السماء ، قد لبست من ضوء القمر أردية نقية ناصعة وامتدت غصونها تضطرب فى الهواء اضطراباً خفيفاً ، كأنها ترغب فى النوم هذه الطير التى أوت إليها حين ولى النهار ، وكأن هذه الطير قد سكنت إلى حركاتها الخفيفة المنتظمة فنامت مطمئنة وادعة ، لولا أحلام خفيفة خفية كانت تمر بنفوسها الضئيلة الوادعة فتبعث من أفواهها أصواتاً قصيرة حلوة ، وتبعث فى أجنحتها خفقات يسيرة لا تكاد تبدأ حتى تنقطع . وقد أطال شهريار وقوفه أمام هذه النافذة مادًّا بصره فى هـــذا الفضاء العريض ، ومادًّا سمعه فى هذا الصمت الجاثم عليه ، ومُمتعاً نفسه بهذا الضوء الرقيق الذى يترقرق بينهما ، وبهذه الأصوات الرشيقة التى تبلغه من حين إلى حين ، حتى إذا ثاب إليه الهدوء وامتلأ قلبه سكينة وآنست نفسه أمناً ودعة تراجع متثاقلاً ، ولكنه لم يذهب إلى مضجعه ، وإنمـا ذهب الى مجلس من مجالسه فى

الغرفة ، فترامى عليه متهالكا وقد أزمع أن ينتظره مطلع الصبح يقظان ، فقد كره مضجعه وكره النوم وكره هذا الطائف الذى أخذ يزعجه منذ الليلة .

ولكنه لم يكد يطمئن فى مجلسه حتى غاب عن نفسه ، أو غابت عنه نفسه . وكأن النوم كان ينتظره خلف هذا المجلس ، فلم يكد يستقر فيه حتى مد إليه ذراعيه فطوق بهما عنقه فى رأفة ورحمة وحنان ، و إذا هو مغرق فى رقاد عميق لذيذ لا يدرى الملك أطال أم قصر . ولكنه أفاق مذعوراً للمرة الثالثة ، فمد بصره ومد سمعه ، ثم لم يلبث أن ضرب إحدى يديه بالأخرى ، ففتح الباب ، وأسرع الحرس وفى أيديهم المصابيح . قال الملك : «هل أنكرتم شيئاً ؟ » . قال قائد الحرس: « لم ننكر شيئاً يامولاى » . قال الملك فى صوت فاتر متكسر : « هذا غريب ! إنى لمؤرق منذ الليلة » .

ثم نهض ومضى متثاقلاً حتى خرج من غرفته والحرس يتقدمونه ويتبعونه ، وهو يسعى هادئاً لا يقول شيئاً ولا يلتفت إلى شىء ، حتى بلغ ذلك الجناح من القصر حيث كانت غرفات الملكة ، فمضى أمامه وعاد حراسه إلى أماكنهم . وانتهى شهريار

إلى غرفة الملكة ، فدخل دون أن يلتفت إلى هؤلاء الأحراس الذين أدهشهم مقدم الملك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولكنهم لم يقولوا شيئاً ، وما كان لهم أن يقولوا شيئاً . وأكبر الظن أن شيئاً من العجب قد ظهر على وجوههم وفى النظرات القصيرة السريعة التى كانوا يتراشقون بها ويختلسونها إلى الملك اختلاساً .

وأغلق الملك من ورائه باب الغرفة فى رفق شديد ، وسعى فى هدوء أى هدوء إلى سرير الملكة يمشى على أطراف قدميه . فلما بلغه نظر إلى الملكة نظرة طويلة ؛ فإذا هى مغرقة فى نوم حلو ، واستمع إلى تنفسها فإذا هو منتظم هادئ ، وإذا الملكة لم تحس شيئاً ولم تشعر بمقدم هذا الشخص الذى انسلَّ إلى غرفتها فى رفق كما تنسلُّ الأفعى ، على غير ماجرت به تقاليد القصر . ثم تراجع الملك شيئاً حتى انتهى إلى مجلس من مجالس الغرفة ، فأهوى إليه رفيقاً حريصاً على ألا يحدث حسًّا ما ، وعلى ألا يزعج الملكة عن نومها . فلما اطمأن به مجلسه أطرق كأنما ينتظر شيئاً . ولكن انتظاره لم يكن طويلاً ؛ فهذا صوت شهرزاد يبلغ أذنيه فيملؤه رعباً وفرقاً ويكاد يخرجه عن طوره ، لولا أنه يذكر شيئاً

فيثوب إلى نفسه فى اللحظة الأخيرة و يطمئن فى مجلسه مادًّا عينيه فى الفضاء مصغياً إلى هذا الصوت الذى يسعى إليه من قبل شهرزاد هادئاً صافياً نقيًّا ، كأنه صوت ذلك الغدير الذى أحب الملك أن يجلس إليه حين تؤذن الشمس بالغروب فيسمع إلى غنائه العذب وهو يداعب الحصى ، وكأنما أسكره هذا العرف الذى تهديه إليه من شاطئيه جميعاً أنفاس الورد والنرجس والياسمين .

٢

وكان هذا الصوت الحلو يقول فى نغمات موسيقية نفّاذة إلى القلوب أخّاذة للنفوس لم يعرفها الملك حين كانت شهرزاد تقص عليه أحاديثها مستيقظة : « بلغنى أيها الملك السعيد أن طهمان ابن زهمان ملك الجن فى حضرموت كانت له فتاة حسناء رائعة الحسن بارعة الجمال ، لا تثبت القلوب للحظاتها إذا نظرت ، ولا تثبت النفوس لصوتها إذا تكلمت . وكانت على حسنها الرائع وجمالها البارع ذكية القلب نافذة البصيرة ، قد قرأت كتب الأولين وعرفت حكمة المحدثين ؛ فلم يكن شىء يستغلق عليها ، ولم

يكن حكيم يثبت لحديثها أو يقدر على مناظرتها وكان ملوك الجن فى أطراف الأرض التى يسكنها الناس وفى أطراف الأرضين التى ليس للناس بها عهد ، قد تسامعوا بجمالها وذكائها وما أتيح لها من فطنة وفتنة ، وتسارعوا إلى أبيها الملك طهمان يخطبونها إليه ويحكمونه فيما يخضع لهم من الممالك والأقاليم : هذا يقدّم إليه أقاليم البحر ، وهذا يقدم إليه أقاليم البر ، وهذا يقدم إليه أقاليم الجو إلى قريب من مواقع النجوم . ولكن طهمان بن زهمان كان يجيب هؤلاء الملوك جميعاً بجواب واحد لا يتغير : « ما كان لى أن أقضى فى أمر فاتنة بغير ما تريد ! فأمر فاتنة إلى فاتنة ، فأيكم أراد أن يتخذها لنفسه زوجاً فليخطبها إلى نفسها . وأيكم ظفر منها بالرضا فله ملك أبيها مهراً » .

ولكن فاتنة كانت غريبة الأطوار ، بعيدة الآمال ، عظيمة الأطماع ، قد زهدت فى ملوك الجن جميعاً واستيأست من حياة الجن جميعاً ، فردّت خطّابها مخذولين مدحورين ، لم تمنح واحداً منهم ابتسامة ، ولم تهد إلى واحد منهم نظرة فيها شىء من الرفق ، وإنما كان ردها لهم عنيفاً يملؤه السخط والازدراء ، ويصدر عن نفس شديدة الكبرياء ، لا تؤمن بأحد ولا تطمئن لأحد ولا تستريح

إلى أحد ، نافرة دائماً ، جامحة دائماً ، ساخرة إلا حين كانت تتحدث إلى أبيها ، فهو وحده الذى كان يظفر منها بالوجه المشرق والثغر الباسم والنفس الراضية . وكان أبوها أول الأمر معجباً بهذه الكبرياء فخوراً بهذا الإباء ، محباً لهذا الامتناع ؛ لأنه كان يرفعه فوق ملوك الجن درجات ، ولأنه كان يمسك عليه ابنته فى قصره . وكان يؤثر ابنته بحب لم يجده أب لابنته قط . وكان يؤثر نفسه بقرب هذه الفتاة الفاتنة . وكان يرى فى امتناعها على الخاطبين فسحة فى الوقت الذى أتيح له فيه أن ينعم بقرب ابنته . والأوقات عند الجن أيها الملك السعيد لا تحسب بالساعات والأيام ولا تحسب بالشهور والأعوام ، وإنما تحسب بالقرون المتتابعة والأحقاب المتلاحقة . فلما مضت آلاف السنين على فاتنة وهى تمتنع على ملوك الجن وأولى البأس منهم فى البر والبحر والجو ، وكانت كلما تتابعت القرون ازدادت حسناً إلى حسن ، وجمالاً إلى جمال ، وفتنة إلى فتنة ، أقبل عليها أبوها ذات يوم أو ذات قرن فقال لها : « يا ابنتى إنك تعلمين أن أباً من الآباء لم يحبب قط ابنته كما أحببتك ، كما أنى أعلم أن فتاة من الفتيات لم تحبب قط أباها كما أحببتنى . وإنك لتعلمين أنى سعيد بامتناعك على خطابك من

ملوك الجن . أرى فى ذلك تعالياً عليهم و إرضاء لكبريائى ، وأرى فى ذلك قبل كل شىء حباً منك لى و إيثاراً منك لأبيك بالمودة والحب . ولو استطعت لمضيت فى تشجيعك على هذا الامتناع و إغرائك بهذا الإباء ؛ ذلك أحرى أن يكفل لى السعادة وأن يضمن لى النعيم إلى آخر الدهر . ولكن لكل شىء يا ابنتى غاية يقف عندها وأمداً ينتهى إليه، وقد بلغت سعادتى بقربك أقصاها وانتهت إلى غايتها ، وآن لنا أن نفترق . فقد علمت يا ابنتى أن أحدنا من أجيال الجن إذا أتم من عمره خمسة عشر ألفاً من السنين وجب عليه أن يستعد لفراق الأحياء ، وأن ينتظر هذه اللحظة الرهيبة التى يستحيل فيها إلى قبس من نار يمتزج بهذه الجذوة الهائلة التى يدور عليها الكون والتى تنضج حياة الأحياء . وقد بلغت يا ابنتى ستة عشر ألفاً من العمر ، وأخذت أحس أنى أتحول ناراً شيئاً فشيئاً ، وما أحب أن أتركك وحيدة ؛ فختارى لنفسك أحب هؤلاء الملوك إليك و أقلهم إلى نفسك بغضاً » .

قالت فاتنة : «فإنى لا أحب منهم أحداً ولا أبغض منهم أحداً، وإنما أزدريهم جميعاً ، وإذاً فلن أختار منهم أحداً » .

قال طهمان بن زهمان : « فإنى لا أكره يا ابنتى أن تمتنعى

عليهم وأن تعيشى وحيدة ، تدبرين أمر هذا الملك بحكمتك وفطنتك لولا أنى قد علمت الآن ما يملأ نفسى قلقاً وخوفاً على قلة ما يعتادنى القلق و يبلغنى الخوف » .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

وهمّ الملك شهريار أن يتكلم ، وهمّ أن يأتى من الحركات ما كان خليقاً أن ينبه النائمة ، ولكنه ذكر شيئاً فى اللحظة الأخيرة فانسلّ من الغرفة فى هدوء كما انسلّ إليها .

ولم يكد ينتهى إلى غرفته حتى دعا إليه قواد الحرس الذين يقومون دون غرفته ودون غرفة شهرزاد . فلما مثلوا بين يديه قال لهم فى صوت مهيب رهيب : « إن بقاء رءوسكم فى أماكنها رهين بأن يجهل الناس جميعاً ، والملكة فى أولهم ، ما كان منذ الليلة . فلا أعلمنّ أن أحداً قد عرف خروجى من هذه الغرفة والرجوع إليها . و إنى أقسم لا ينتهى إلىّ ما يدل على ذلك أو يشير إليه إلا ضربت أعناقكم جميعاً ، وقد تعلمون أنى لا أوعد إلا تحقق الوعيد » . قالوا جميعاً : « فإنا لا نعلم أن مولانا قد خرج من غرفته أو عاد إليها ، وما نكاد نفهم من حديث مولانا شيئاً ، ولولا أن علينا أن نأتمر وليس لنا أن نسأل لاستوضحنا مولانا

بعض ما يقول ! » . قال الملك : « أرى أنكم قد فهمتم عنى ما أريد . فانصرفوا راشدين » .

ثم أوى إلى سريره فاستمتع بنوم لذيذ طويل ، لا تروعه فيه الأحلام ولا تزعجه عنه أحاديث تلك الأرواح الهائمة التى تنطلق فى الفضاء وهى تجمجم ببعض الألفاظ فيفهم عنها الناس أحياناً ولا يفهمون عنها فى أكثر الأحيان . وكان الملك خليقاً أن يمضى فى نومه هذا الهادئ اللذيذ ، لولا أن أحس على جبهته شيئاً يشبه ما نعود أن يجد حين يستقبل نسيم الصباح حين تدبر النجوم ويبتسم الليل عن كوكب النهار . فلما أحس هذا الروح أفاق من نومه هادئاً موفوراً ، وفتح عينيه فرأى شهرزاد قائمة إزاءه وقد وضعت يدها الرخصة على جبهته وهى تمد إليه نظرة غامضة أحبها ولم يفهم منها شيئاً .

قالت شهرزاد : « أفق أيها الملك السعيد غير مأمور ! فقد ارتفع النهار ، وأوشكت الشمس أن تزول ، وإن وزراءك لينتظرون مَقدَمك الميمون عليهم . ألم تتأذّن فيهم أمس بأنك ستستقبلهم متى أشرقت الأرض بنور ربها ! » .

قال الملك : « هو ذاك يا أحب الناس إلىّ وآثرهم عندى .

ولكنى أرقت منذ الليلة أرقاً طويلاً ، ولم أطعم النوم إلا حين كادت ظلمة الليل أن تنجلى » . قالت شهرزاد : « أرقت يا مولاى ! وما أرّقك ؟ » . قال الملك : « تسألين ما أرّقنى ! » ثم سكت لحظة همّ فى أثنائها أن ينبئ شهرزاد ببعض الأمر ، ولكنه ذكر شيئاً فرد نفسه إلى رشدها وقال مبتسماً : « أرّقنى الشوق إلى قصصك العذب الجميل » .

وكان الواقع من أمر شهريار أن نفسه لم تسل عن قصص شهرزاد منذ انتهى فى الليلة الواحدة بعد الألف ، وإنما كانت تتحرق شوقاً إليه إذا أقبل ميعاده المعهود من الليل ، وتتحرق شوقاً إليه إذا أقبل النهار . وكانت تشتغل بما تشتغل به من شؤون الملك والقصر ، ولكنها كانت تحس دائماً كأنها فقدت شيئاً ، وكأنها لا تستطيع عنه صبراً ، وكأن الأمور لن تستقيم لها إلا أن تجد هذا الشىء الذى فقدته . وكان هذا الشعور الغامض يصحب الملك فى جميع لحظاته وحين كان يأتى ما يأتى من الأمر ، وحين يدع ما كان يدع منه . وكان الملك من أجل ذلك منغص الحياة دائماً ، ولكنه كان يجاهد نفسه ويخفى أمره ويتكلف الرضا ويتكلف الابتسام ، وربما تكلف الضحك أحياناً ، وربما أقبل

على اللهو فأسرف على نفسه وعلى حاشيته فيه يريد أن ينسى ، ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، فيمضى فى اللهو ليخيل إلى من حوله أنه سعيد موفور .

وقد بلغ الملك من ذلك ما أراد ، فخدع حاشيته كلها وخدع أهل دولته جميعاً ، وخيّل إلى الذين يقربون منه أو يبعدون عنه أنه أرضى الناس عن الحياة وأسعدهم بها ، إلا أثنين لم يستطع أن يخدعهما ولا أن يغرّهما ، وهما شهريار نفسه ، وشهرزاد تلك الساحرة الماهرة الماكرة التى كانت تعلم حق العلم بما يضطرب فى نفس الملك من قلق وما يملأ قلبه من حزن ، فترثى له حيناً وتشمت به أحياناً ، وتختلس إليه بين وقت ووقت نظرات كأنها السهام فيها كثير من العطف ، وفيها كثير من القسوة ، وفيها كثير من الإغراء الذى يثير الطمع ، وفيها كثير من الإباء الذى يملأ النفس يأساً وقنوطاً . ولكنها على ذلك كله لم تبادل الملك بشىء مما كانت تعلم ، وإنما عاشت معه حفية به متلطفة له غامضة مع ذلك أشد الغموض .

فلما كان من تلك الليلة أقبل الملك على غرفته كئيب النفس مريض القلب قد امتلأ رأسه بخواطر أقل ما توصف به أنها

كانت قاتمة شديدة القتمة ، ولكنها كانت ربما احمرّت لحظة قصيرة ثم عادت إلى ظلمتها المظلمة وسوادها المشتق من سواد الليل . فقد كان الملك يائساً أشد اليأس من شهرزاد قد عجز عن فهمها . وكان ضيقاً أشد الضيق بشهرزاد قد كلّ عن احتمال عشرتها ، فكان عليها ساخطاً أشد السخط ، وكان لها محبًّا أشد الحب . وكان يهم أحياناً بأن يتقاضاها شيئاً من الوضوح والجلاء فى سيرتها وفى لفظها ولحظها ، ويهم أحياناً أخرى أن يتقدم إليها فى أن تستأنف ذلك القصص الذى لا يستطيع عنه صبراً . ولكنه كان واثقاً بأنه يستطيع أن يتقاضاها ما شاء فلن يظفر منها إلا بما تشاء هى . ولن تشاء هى إلا هذا الغموض الذى أصبح لا يطيق له احتمالا . هنالك كانت خواطر نفسه تصطبغ بحمرة الدم . فقد كان يرى نفسه مقبلا على شهرزاد يضمها إليه ضمًّا شديداً عنيفاً ، ويهدى إليها قبلات محرقة ملتهبة ، حتى إذا بلغ به الحب والهيام أقصاه أغمد خنجره هذا الدقيق فى صدرها هذا الناصع الجميل ، وتلقى ما يفيض به هذا الينبوع من دمها الحار ، فلعله أن يشفى ما كان يجد من هذا الظمأ الذى لا شفاء له . على أنه كان لا يكاد يلمّ بهذا الخاطر الأحمر ، أو كان

هذا الخاطر الأحمر لا يكاد يلم به ، حتى تأخذه رعدة عنيفة . فقد كان ضيقاً بشهرزاد أشد الضيق ، ولكنه كان يجد سعادته فى هذا الضيق ، ولذته فى هذا الألم ، وراحة نفسه فى تعبها من هذا الغموض. ومن يدرى ! لعله لو انجلت له نفس شهرزاد وألغيت بينه و بينها الحجب فرآها واضحة ناصعة كأنها فلق الصبح لامتلأت نفسه حزناً وحسرة ؛ فإن العشاق لا يكرهون شيئاً كما يكرهون الراحة المطَّردة . ولا يضيقون بشيء كما يضيقون بهذا الوضوح الجلىّ . هم فى حاجة دائماً إلى أن يشكوا ، فهم فى حاجة دائماً إلى أن يجدوا مصدراً للشكوى . هم كطلاب المثل العليا لا يقتربون منها إلا لتبعد عنهم ، ولو قد بلغوها وانتهوا منها إلى ما يرضيهم لكانوا أشقى الناس بذلك وأشدهم عليه سخطاً ؛ فسعادتهم فى الطموح المستمر والجهاد المتصل ، لا فى بلوغ الغاية والانتهاء إلى الأمد .

بهذا كله و بأكثر من هـذا كله كانت نفس شهريار تضطرب حين أوى إلى سريره من تلك الليلة ، وقد أرقته هذه الخواطر شيئاً ، ولكن النوم لم يلبث أن أسرع إليه واشتمل عليه . ثم سمع فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قائلا يقول له : «إنك لضعيف مغرور تعنّى نفسك فى غير عناء ، وتشقّ

عليها فى غير مصدر للمشقة . أنت مشوق إلى قصص شهرزاد لا تستطيع عنه صبراً ، فهل علمت أنها هى أيضاً مشوقة إلى هذا القصص لا تستطيع عنه إعراضاً ؟ أنت ضيق بغموض شهرزاد لا تستطيع له احتمالا ، فهل علمت أنها هى أيضاً ضيقة بوضوحك لا تستطيع له استقبالا ؛ أنت تريد أن تلهو عن غموض شهرزاد بما تقص عليك من حديث ، وهى أيضاً تريد أن تلهو عن وضوحك بما تقص عليك من أخبار . أنت ترى فيها المرأة الماكرة التى لا تؤتمن والتى لا تحتمل عشرتها إلا أن يستعان عليها بما يلهى عنها . وهى ترى فيك الرجل القاتل الغادر الذى يلتمس لذته حتى إذا ظفر بها ألغى مصدرها إلغاء ؛ فلا سبيل إلى اتقاء شره إلا بتلهيته والتلهى عنه . أنت مشوق إلى أن تسمع منها وإلا قتلتها . وهى مشوقة إلى أن تتحدث إليك وإلا قتلتك . وقد انتهت أحاديثها إليك فى اليقظة ، ولتبدأن أحاديثها إليك فى النوم . وستجد أنت لذة فى هذه الأحاديث ، وستجد هى راحة فى هذه الأحلام . أفق إذاً من نومك واذهب إلى غرفتها متلطفاً مترفقاً . فإذا بلغتها فاجلس من سريرها غير بعيد وانتظر ، فستسمع منها ما يرضيك .

وقد خيِّل إلى شهريار أن طائفه ذاك قد ألقى إليه حديثه هذا الطويل فى وقت يعدله طولا كما تعوّد الناس أن يتحدث بعضهم إلى بعض ، ولكنه لو أطلع لرأى أن طائفه ذاك لم يلمّ به إلا لحظة قصيرة جدًّا ألقى إليه حديثه فيها جملة . وآية ذلك أنه أفاق فأنكر هذا الطائف مرة ومرة . ولكنه كان كلّما عاد إلى النوم وعاد النوم إليه سمع هذا الحديث كله من طائفه فأفاق منكراً لما سمع . يرى أنه لم ينم وإنما أغفى إغفاءةً قصيرة أقصر من أن تطول لهذا الحديث . فلما ألحّ عليه الطائف بحديثه لم ير إلا أن يجرّب الأمر ويعبر الرؤيا ويختبر صدق هذا الخبر . فسعى إلى غرفة شهرزاد فرأى فيها ما رأى وسمع فيها ما سمع ، وأمر حراسه وأحراس الملكة بما أمر ، ثم سلم نفسه إلى النوم واطمأن إلى صدره الوثير حتى استلّته منه شهرزاد بيدها الرخصة الناعمة ، وصوتها العذب الجميل ، ووجهها المشرق الوضاء ، ونظرتها تلك الغامضة أشد الغموض .

ومع ذلك فقد أنفق شهريار نهاره هادئاً مطمئن النفس رضىّ البال متصرفاً فى أموره كما تعود أن يفعل قبل أن يعتريه هذا القلق ، لا يحس خوفاً ولا إشفاقاً ، ولا يشعر أنه فقد شيئاً ولا يجد

فى التماس هذا الشىء ، ولا يضيق بعشرة شهر زاد ، ولا يكره ما كان يحس فيها من هذه الكبرياء البغيضة التى هى مزاج من الرثاء له والقسوة عليه .

ولم يتغير من سيرة شهرزاد شىء ؛ فقد كانت كعهد الملك بها غامضة دائما ساحرة اللفظ واللحظ ، ولكنها كانت تشيع من حولها شيئاً غريباً لا يعرف كنهه ولكنه كان يبعث الأمن والأمل والاطمئنان .

٣

فلما كانت الليلة العاشرة بعد الألف أنفق الملك شطراً من الليل بين وزرائه وندمائه ، يخوض معهم فى ألوان من الحديث ويجاذبهم أطرافاً من اللهو . ثم صرفهم حين تقدم الليل كعادته ، وخلا إلى الملكة بعد ذلك فقضى معها شطراً آخر من الليل ، ذاق فيه من النعيم ما شاء حبه لشهرزاد وما شاءت قدرة شهرزاد على فتنة المحبين وإمتاعهم بنعماء الحب وبأسائه جميعاً .

ثم افترق العاشقان بعد أن كاد الليل يبلغ ثلثيه ، وثاب الملك إلى غرفته ، ولكنه لم يأو إلى سريره ، وإنما لبث ساعة يتردد

أينكر ما كان فى الليلة البارحة ويقبل على النوم كأن لم يكن شىء وكأن لم ير شيئاً ، أم ينتظر حتى إذا استيقن أن شهرزاد قد اشتمل عليها الرقاد سعى إلى غرفتها واتخذ من سريرها مجلسه ذاك ، لعله يسمع منها تتمة ذلك الحديث . وكان إلى تتمة ذلك الحديث مشوقاً أشد الشوق ، وكان فى الوقت نفسه عظيم الشك فى أن تستقيم له الأمور من ليلته هذه كما استقامت له من ليلته تلك .

وإنه لفى هذا التردد لا يدرى أيُقدم أم يُحجم وإذا النوم يأخذه فى مجلسه وقتا لا يدرى أكان طويلا أم قصيراً ، ولكنه يسمع فى آخره طائفه ذاك يقول بصوته الهادىء المطمئن : « لن يُهلك الإنسان الا إسرافه على نفسه بالشك والارتياب . ان كنت فى حاجة إلى أن تسمع حديث شهرزاد فأسرع إلى مجلسك من سريرها فقد آن لها أن تأخذ فى الحديث . وما أراك تحب أن تقص بقية خبرها على غرفتها تلك وما فيها من الأثاث » .

هنالك أفاق شهريار مرتاعاً مذعوراً ، ولكنه لم يفكر فى شىء ولم يسأل نفسه ولا حرسه عن شىء ، وإنما انسلّ مسرعاً حتى دخل غرفة الملكة واطمأن فى مجلسه غير بعيد من تلك

النـائمة الهائمة التى لم يصدر عنها ما يدل على أنها قد أحست مَقدَمه . ولم يمض غير قليل من الوقت حتى انتهت إلى سمعه تلك النغمات الحلوة الرشيقة الأنيقة تحمل إليه صوت شهرزاد وهى تقول : « بلغنى أيها الملك السعيد أن الملك طهمان بن زهمان قال لابنته فاتنة وهو يحاورها إننى قد علمت الآن ما يملأ نفسى قلقاً وخوفاً على قلة ما يعتدنى القلق و يبلغنى الخوف . »

قالت فاتنة وقد ترددت فى عينيها دموع حائرة تدفعها الرحمة لأبيها و يمسكها الإشفاق عليه أن يزداد حزناً إلى حزن وا كتئاباً إلى ا كتئاب: « و يحى عليك يا أبت ! ما عرفتك قبل اليوم حافلا بالقلق أو معنيا بالخوف . وما أرى إلا أنك تفكر فى ابنتك فتكثر التفكير ، و يسوءك أنك حين تفارق هذه الحياة لن تترك لها أخا ولا نصيراً . ولكنى أحب أن تطيب نفساً وتقر عيناً ؛ فإن ابنتك قد تعلمت منك كيف تواجه الحياة وتثبت لخطوبها وتنفذ من مشكلاتها . و إنى منبئتك الآن بما يثير فى نفسك القلق و يبعث فى قلبك الخوف» . قال أبوها : « وما أنت وذاك يا ابنتى! ومن أين لك العلم بما لم ترتفع به الأنباء إلا إلىّ ! ولم ترتفع به الأنباء إلىّ إلا الساعة قبل أن ألقاك بلحظات !! » قالت فاتنة :

« فاسمع مني قبل كل شيء . فإن يكن ما أنبئك به صحيحاً كان ذلك خليقاً أن يرد الراحة إلى نفسك والأمن إلى قلبك ، وإن يكن ذلك غير صحيح رددتني إلى الصواب ووجهتني من أمري حيث تحب ، فلن أعصى لك أمراً ، ولن أرد عليك قولا » . قال الملك : « فهات ما عندك يا ابنتي » .

قالت فاتنة : « لقد ارتفعت إليك الأنباء الساعة بأن هؤلاء الخاطبين الخائبين من ملوك الجن في البر والبحر والجو قد ساءتهم الخيبة وأسخطهم ردي لهم وإعراضي عنهم ، ووقع في نفوسهم أني أزدريهم ولا أقدر مراتبهم حق قدرها ، فاستحال حبهم لي بغضاً وتنافسهم فيّ تظاهراً عليّ ، وقد سعى بينهم السفراء ، ثم كان بينهم الاتفاق ، فأجمعوا رأيهم على أن ينتظروا بك ما بقي من عمرك ، وهم يرونه قصيراً وأراه طويلا ، وقد أزمعوا إذا تركت هذه الحياة أن ينصبوا الى الحرب مؤتلفين لا مختلفين، ومتظاهرين لا متدابرين ، وألا يكفوا عن هذه الحرب حتى يدمروا ملكي تدميراً ، وأيهم ظفر بي فأنا أسيرته ، يمسكني في قصره كما تمسك الإماء ، لا يكرمني بازواج ولا يؤثرني بالحب ، وإنما يصب على من العذاب ألواناً ويسومني من الضيم فنوناً . وقد تقسموا

على ذلك بأغلظ الأيمان وأشدها إحراجاً ، وكتبوا بذلك وثيقة أودعوها مكاناً أميناً حصيناً ، هناك فى قاع البحر المحيط وراء أعمدة هرقل . وإنى لأنظر إلى صحيفتهم هذه كما أنظر إلى وجهك الآن . وإنى لأقرأ ما كتب فيها كما أتبين ملامح وجهك . وإنى لقادرة إن شئت على أن آتيك بها قبل أن تقوم من مقامك ، ولكن على أن تأخذها بيدك وتقرأها ، ثم تعيدها إلىّ لأردها إلى مكانها ؛ فقد سبق القضاء بأحداث لا بد أن تقع ، وجرى القدر بأمور لا بد من أن تكون » . قال الملك وقد اضطرب اضطراباً شديداً ، وظهرت على وجهه أمارات الرضا والدهش جميعاً : « قد كنت أعلم يا ابنتى أن لك كما لأترابك من بنات الجن علماً بالسحر ونفاذاً فيه وتصرفا فى دقائقه . وكنت أعلم أنك قد تفوقت عليهن فى ذلك تفوقاً ظاهراً كما تفوقت عليهن فى كل شىء . ولكنى لم أكن أقدر أنك قد بلغت من ذلك هذا المبلغ الذى أراه ! فمن أين لك يا ابنتى هذا العلم ؟ وكيف انتهيت من السحر إلى هذه المنزلة التى لم يبلغها قط أحد من فتياننا ولا من فتياتنا ؟ » . قالت : « ذلك خليق أن يرد نفسك إلى الراحة وقلبك إلى الاطمئنان ، فلا تحسب لما دبَّر هؤلاء

الملوك حساباً ، ولا تخش عليّ منهم غائلة » . قال الملك : « هو ذاك يا ابنتى ، ولكنى أريد أن أعرف كيف انتهيت إلى هذه المنزلة من العلم بالسحر والنفوذ إلى أسرار السكون » . قالت فاتنة : « إنما انتهيت إلى هذه المنزلة لأنى صرفت عن هذه الحياة الباطلة التى يحياها بنات الملوك فى ظل آبائهن ناعمات بالعيش الرخيّ ، طامعات فيما تتكشف لهن عنه الأيام ، مفكرات فيمن يسعى إليهن محبًّا أو متملقاً أو خاطباً . صرفت عن هذا كله وعن أشباهه إلى النظر فى حكمة الأولين والمحدثين ، وإلى كثير من التجربة والاختبار ، ما أعرف أن أحداً عُنِي بمثلها . ولكن أتريد أن تنظر فى صحيفة هؤلاء الملوك ؟ » . قال الملك : « وإنك لقادرة على أن تأتى بها » . قالت فاتنة : « قبل أن يرتد إليك طرفك » . ثم مدت يدها فى الهواء وردتها فإذا فيها علبة صغيرة مربعة من معدن تحمل أختاماً كثيرة ، فوضعتها بين يدى الملك ، ثم أشارت إليها فإذا هى تفتح دون أن تمس أختامها بفساد ما ، ثم تخرج منها قطعة رقيقة من رصاص فتدفعها إلى الملك . وينظر فيها ثم يردها إليها وقد بلغ منه الدهش مبلغه وانتهى السرور به إلى قصده . وهو يقول لابنته : « لا بأس عليك

من هؤلاء الملوك مهما يدبروا و يقدروا ، فما أرى إلا أنك ستردين كيدهم في نحورهم وستلقينهم بشر مما يلقونك به » . قالت وقد ردّت الصحيفة إلى مكانها من العلبة ، وأشارت إليها فعادت كهيئتها حين جاءت بها ، ثم أخذتها ومدّت يدها بها فى الفضاء ثم ردّت يدها فارغة كأن لم تمسك شيئاً قالت : « ولأرينّك من أمرهم ما تحب وما يكرهون » . قال الملك : « وما ذاك يا ابنتى ؟ » . قالت : « إنهم يأتمرون بهذا الملك ليدمروه ، و بصاحبنه ليستذلوها ، وهم من أجل ذلك يهيئون للحرب ويجهزون لها جهازاً لم يجهزه أحد من قبل ؛ فإن الحرب لا يقتلها إلا الحرب ، و إن الكيد لا يفسده إلا الكيد ، و إن الحديد لا يفله إلا الحديد كما يقول هؤلاء الجيل من الناس الذين يعيشون حولنا فيما يقولون من حماقاتهم » . قال الملك : « و إنك إذاً تريدين أن تسبقيهم إلى الحرب . وما أنت وذاك وهم منفرقون فى أقطار الأرض والبحر والجو ، ولا قبل لك بغزوهم جميعاً في مستقرهم ؟ » . قالت : « لن أغزو أحداً فى مستقره ، ولكنى سأغزوهم حول هذه المدينة . سأثيرهم إلى الحرب حتى إذا ثاروا إليها واندفعوا فيها وأتوا بكل ما أعدّوا من عدة وما حشدوا

من جند رأيت كيف يكون إفنـاء القوة ، وكيف يكون دحر الأعداء » .

وهمّ الملك أن يتكلم ، ولكن فاتنة لم تمهله ، وإنمـا قالت : « هوّن عليك ، فلن أعلن على أحد حرباً ، بل لن أسوء أحداً منهم ، ولكنى معلنة إليهم جميعاً أنى قد أزمعت أن أتخذ لى من بينهم زوجاً ، وأنى مختارة من بينهم من استطاع أن يقهر هـذه المدينة بمـا عنده من عُدَّة وعدد ، فستراهم يومئذ وقد جمعوا جموعهم وحشدوا قُواهم وأقبلوا يريدون أن يدكوا هذا الملك دكا ، منهم من لا يريد إلا النصر الذى يتيح له الظفر بى ، ومنهم من يريد أبعد من ذلك غاية وأنأى مَرامًا ، يريد التدمير الذى لا تدمير بعده ليخلص من قوة طالما فـكر فى أن يخلص منها » . قال الملك : « وإنك لفاعلة هـذا ؟ » . قالت : « ما أريد أن تفارقنى وفى نفسك ظل من خوف علىّ أو إشفاق ممـا قد يدبّر هؤلاء الملوك لى من كيد » .

ثم أشارت بيدها إشارة خفيفة فما أسرع ما فتحت الأبواب وأقبل الوزراء ورجال القصر ، فأعلنت إلى أبيها بين أيديهم أنها قد غيّرت من رأيها ، وعدلت عن سيرتها الأولى ، وفكرت

فى أن تتخذ لنفسها زوجا ، ولـكنها لا تريد أن يكون زوجها ضعيفاً أو متسلطاً على دولة ضعيفة ؛ إنما تريد أن تقترن بأقوى ملوك الجن قوة ، وأشدهم أيداً ، وأعظمهم بأساً ، وأبعدهم صوتاً ؛ وتريد أن تختـبر ذلك بنفسها ، وأى ملوك الجن استطاع أن يقهر مدينتنا هذه و يدخلها عنوة فأنا له زوج وملـكى لملـكه تبع.

وقد اضطربت نفوس الوزراء ورجال القصر لهـذا الحديث حين سمعوه ؛ فقد رأوا أهوال الحرب تصب على بلادهم صبًّا ، وأشفقوا مما تجره الحرب عليهم وعلى الرعية من مكروه ، وهَمَّ غير واحد منهم أن يراجع الأميرة فيما قالت ، ولـكنها أشارت إشارة خفيفة فانعقدت الألسـنة وغضَّت الأبصار ، وانحنت الرءوس ، وخرج رجال القصر وقد أذعنوا للأمر . وقال وزير الملك إنه مبلغٌ تحدِّى الأميرة لملوك الجن جميعاً من فوره .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الـكلام المباح .

وعاد شهريار إلى غرفته ناعم البال بما سمع ، ولـكنه كان مضطرب النفس أشد الاضطراب . فلم يكن شهريار كعهد الناس به حين كانت تقص عليه أحاديث « ألف ليلة وليلة » ثائر النفس ، جامح الشهوة ، سيء الظن بالمرأة ، مستجيباً لغرائزه حين تدعوه

إلى ما تدعوه إليه من الخير والشر، إلا أن يلهى عنها بفنون الحديث، وإنما كان رجلا آخر قد خلقته شهرزاد خلقاً جديداً.

كان كثير التفكير متصل التروية، لا يرى شيئاً إلا اجتهد فى أن يعرف مصدره وغايته، ولا يسمع شيئا إلا جدّ فى أن يفهم ظاهره وتأويله. وكان هذا الجهد العقلى الطارئ عليه يعنيه أول الأمر، ولكنه اتصل حتى أصبح عادة لشهريار، وإذا هو مفكر دائماً، مقدر دائماً، منفق وقته وجهده فى التحليل والتعليل، لا ينصرف عن ذلك إلا حين تشغله شهرزاد بجدها قليلا وبدعاباتها كثيراً. وفى الحق أن شهرزاد لم تكن تشغله عن التفكير، وإنما كانت تريحه منه وقتا ما، حتى إذا انصرفت عنه ردّته إلى التفكير، وإلى التفكير الذى يزداد شدة وعنفاً كلما لقى شهرزاد وانصرف. وقد تركت فى نفسه وأمام عقله من الألغاز والأسرار ما يكلفه الجهد المضنى دون أن ينفذ إلى أعماقه.

وكان أمر شهريار قد شق على الناس جميعا؛ فوزراؤه ورجال حاشيته قد أنكروا منه هذا الهدوء الذى لا عهد لهم به، وهذه الدقة فى القول والعمل جميعا، وهذه الدقة فيما كان يوجه إليهم من حديث، وقلة الرضا بما كانوا يقدمون إليه من رد، لأنه كان

يريدهم على أن يصطنعوا الدقة كما يصطنعها ، و يمعنوا فى التفكير كما يمعن فيه .

و إنما كانت شهرزاد وحدها هى التى لم تنكر من الملك شيئاً ولم ينكر منها الملك شيئاً . كانت تلقى هدوءهُ بهدوء مثله وتفكيره بتفكير أشد منه تعمقاً ، وكانت تسمع أحاديثه الدقيقة فترد عليه بأحاديث أشد منها دقة ، حتى استعجمت أحاديثهما أو كادت تستعجم على الذين كانوا يحضرون مجالسهما من أهل القصر ورجال الدولة . وقد شاع بين أولئك وهؤلاء أن طائفاً غريباً قد ألمّ بالقصر فأفسد على هذين العاشقين أمرهما ، فهما يقولان ما لا يفهم ، و يتناجيان بما لا يدرك ، والغريب أن الملكة تفهم عن زوجها كل ما يقول ، وأن الملك لا يفهم عنها إلا قليلا ! تلك كانت حال شهريار . فليس غريباً إذاً أن يعود إلى غرفته بعد أن أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح ، هادئاً مضطرباً معاً تجيش فى رأسه خواطر غريبة عن حديث فاتنة هذا الذى استأنفته شهرزاد منذ ليلتين .

وقد كان شهريار فيما مضى يسمع قصص شهرزاد فيفهمه ويرضى عنه ويلهو بظاهره ، لا يتكلف له تأويلا ولا تعليلا ، ولا

يلتمس لألفاظه الواضحة السهلة معانى ملتوية معقدة ، ولكنه الآن يسأل عن فاتنة هـذه من تكون وما تكون ؟ وهل هناك سبب بينها و بين شهرزاد ؟ وهل هناك صلة بين قوتها الجامحة الثائرة و بين هـذه القوة الهائلة التى تتسلط بها شهرزاد على كل من دنا منها أونأى عنها ؟ وهل هناك صلة بين ازدراء فاتنة لملوك الجن وازدراء شهرزاد لملوك الإنس ، فما من شك فى أن شهرزاد لا تزدرى ملوك الإنس وحدهم ، ولكنها تزدرى الملوك والرعية جميعاً . وما من شك فى أن شهرزاد تزدرى شهريار نفسه ، و إلا لتلقته بنفس مشرقة مسفرة ؟ ولجنبته هذه السيرة الغامضة وهذه الأحاديث الملتوية .

وهنا كان الدم يغلى فى عروق شهريار وتعود إليـه غريزته الأولى عنيفة طاغية ، فينهض واقفاً وقد جاشت فى نفسه عواطفه الثائرة ، واضطربت فى رأسه خواطره الحمراء . ولكنه لا يلبث أن تتمثل له ابتسامة حلوة أهدتها إليـه شهرزاد فى بعض الحديث ، أو دعابة ظريفة سقتها إليه شهرزاد فى ساعة من ساعات اللهو ، أو نظرة رحيمة نظرتها إليه شهرزاد فى لحظة من لحظات الحنان ، و إذا هو يثوب إلى نفسه هادئاً وادعاً

كأنه الطفل، نادما على ما قدم من سوء الظن بهذه التى لا ينبغى أن تساء بها الظنون .

وكذلك أنفق الملك السعيد بقية ليله شقياً محزوناً مضطرب النفس مختلط الأمر ، لا يستقر فى مجلسه إلا لينهض منه ويمضى فى غرفته ذاهباً آئباً ، وربما أشرف من النافذة فملأ صدره من نسيم الليل بما يحمل من عطر رطب لذيذ ، وملأ عينيه من ظلمة الليل بما يضطرب فيها من ضوء ضئيل نحيل . ولكن الشىء المحقق أنه لم يأو إلى سريره ولم يفكر فى أن يأوى إليه ، إنما قضى بقية ليله سائراً حائراً ، وكان خليقاً أن يقضيها هادئاً راضياً بعد ما سمع من قصص شهرزاد . وقد كان يسأل نفسه عن مصدر هذه الحيرة وعن علة هذا السهاد ، وكان يقدر أنه يجد فى قصص شهرزاد ما كان فى حاجة إليه من نسيان نفسه ونسيان الناس والتجرد من هذا العالم الثقيل عليه البغيض إليه ، كما كان ذلك شأنه حين كانت شهرزاد تمتعه بقصصها اليقظان . فأما هذا القصص النائم فانه لا ينقع له غلة ولا يشفى له صدى ، وإنما يزيده ظمأ إلى ظمأ وتحرقا إلى تحرق ، فهو أشبه شىء بهذه الأشربة الحادة التى يظمأ إليها الراغبون فى السكر، يظنون أنها ستبرد أكبادهم وتطفىء ما فى

أحشائهم من لهب ، ولكنهم لا يتجرعون كؤوسها حتى تزداد أكبادهم احتراقا و يزداد اللهب فى أجوافهم تلظياً واضطراماً،فهم يتداوون منها بها ، كما يقول الأعشى ، و يتخذون داءها دواء ، كما يقول أبو نواس . ولو قد استطاع شهريار أن يجعل ليل شهرزاد كله حلماً ينطق بهذا الحديث العذب والقصص الجميل لفعل . ولكن من له بذلك وقد قدرت له أحلام صاحبته تقديراً وقطّرت له أحاديثها تقطيراً ، فهى تبدأ فى موعد موقوت لا تستطيع أن تسبقه ، وتنتهى عند أجل محدود لا تستطيع أن تتجاوزه. وقد كان قادراً على أن يستزيد شهرزاد حين كانت تحدثه مستيقظة ، وكان قادراً على أن يستوضحها إن أشكل عليه بعض الحديث . فأما الآن فهو لا يستطيع أن يستزيدها ولا أن يستوضحها ، لأنها لا تعرف أنها تقص عليه شيئاً ، ولا تعقل مما تقص عليه شيئاً . بل هو لا يستطيع أن يشير إلى هذه الأحاديث التى تلقيها إليه أحلام شهرزاد . فقد قال له طائفه فيما قال : « احذر أن تنبهها من قريب أو بعيد إلى هذا القصص ، فإنك إن تفعل لم تزد على أن ترد عنها الأحلام وتحرم نفسك ما بقى لها من هذه اللذة المختلسة» .

وكان الضيق قد بلغ بشهريار غايته حين بلغت أذنيه أصوات

الطير المستيقظة وهى تستقبل النهار فرحة مرحة ، وتتلقى ضوء الشمس مبتهجة به أعظم الابتهاج نشيطة له أشد النشاط . وقد وقعت هذه الأصوات العذبة المختلفة من نفس الملك أحسن وقع ، فثاب إلى قلبه المذعور شىء من أمن و إلى نفسه اليائسة شىء من رجاء ، و إذا هو يجد حاجة قوية إلى أن يغتدى مع الطير ، ويُسلم نفسه لهذه الطبيعة الحرّة المرحة المبتهجة فيفنى فيها و يصبح جزءاً من أجزائها وعنصراً من عناصرها ساعة أو ساعات . وها هو ذا يسعى إلى طنف من أطناف الغرفة ، فيشرف منه على هذه الجنة المطيفة بالقصر ، والتى لا يبلغ الطرف أرجاءها مهما يمتد ومن أى ناحية يمتد . و إذا هو يفتح صدره للنسيم العذب ، وعينه للضوء المشرق ، وسمعه للأصوات التى يتغنى بها الفضاء العريض . و إذا هو ينسى نفسه أو يكاد ينساها ، لا يكاد يشعر إلا بأنه يخطو خطوات متثاقلة يتبع بعضها بعضاً فى أناة و بطء ، وقد ذهل عما حوله وذهل عنه ما حوله . وهو يهبط درجات السلم رزيناً متثاقلا يكاد يترنح ترنح الثمل السكران . وهو يسعى لا يكاد يحس خطاه لأن قدميه لا تمسان الأرض ، و إنما تتنقلان على هذا البساط الكثيف الذى نسجته الطبيعة ونسجه معها البستانيون من

سندس العشب . وما يزال كذلك يسعى أمامه لا يلوى على شيء حتى يحس فى مثل الحلم كأنه ينعطف عن غير إرادة إلى يمين لأن طريقه كانت تقتضى الانعطاف إلى يمين ، فيمضى ويمضى وهو يحس فى نفسه حسرة ضئيلة خفية لأنه لا يستطيع أن يستمتع بما حوله من فنون الزهر والشجر ، وقد تعوّد حين كان يسعى فى جنته هذه ألا يتقدم إلا ليتأخر وألا يمضى إلا ليقف . وكانت له وقفات طويلة عند هـذه الألوان من الزهر الذى نسّق أجمل تنسيق وأروعه ، يحدّق فى هذه الزهرة ويمتحن هذا النجم ، وربما تحدث إلى هذا البستانى أو ذاك سائلا حيناً وآمراً حيناً آخر ، ولكنه فى هـذا اليوم يمضى أمامه لا يلوى على شيء ولا يفكر فى شيء ولا يقف عند شيء .

وليس من المحقق أنه كان يرى هؤلاء البستانيين الذين كانوا ينهضون إذا رأوه مقبلا من بعيـد فيحيون وينتظرون أن يلقى إليهم السؤال أو يصدر إليهم الأمر . يبتهجون بذلك فى دخائل ضمائرهم ويتمنون به الأمانى .

ولكن الملك كان يمر بهم ذاهلاً عنهم أو كان ينظر إليهم نظره إلى التماثيل القائمة التى لم يكن ينتظر أن تسمع منـه كلاماً

أو ترد عليه رجع حديث . وكان هؤلاء البستانيون يُسْقَطُ فى أيديهم إذا مر بهم الملك غافلاً عنهم غير مكترث بهم ، فيردون أنفسهم إلى التعزى عن هذه الابتسامة التى كانوا ينتظرونها وعن هذا الأمل الذى كانوا يداعبونه ، ويقول بعضهم لبعض : « ما بال مليكنا كئيباً محزوناً منذ اليوم ؟ » .

ولـكن ملكهم لم يكن كئيباً ولا محزوناً ، وإنما كان نشوان ثملاً قد صرفته الحياة عن الأحياء وصرفته الطبيعة عن الناس والأشياء ، فهو يمضى أمامهم لا يلوى على شىء ، حتى إذا بلغ من جنته مكاناً بعينه انحرف إلى شماله فمضى فى ممر ضيق ضئيل تحف به من جانبيه أشجار ضخام فى الفضاء طوال فى السماء ،قد تضامَّت غصونها واختلطت أوراقها حتى انعقد منها سقف كثيف لا ينفذ منه ضوء الشمس إلا ضئيلاً هزيلاً بعد مشقة شاقَّة وجهد . جهيد والملك يمضى أمامه فىهذا الممر الضيق كأنه النفق، حتى إذا مشى غير قليل انفرجت هذه الشجرات الملتفة المتكاثفة قليلاً قليلاً حتى جعلت بينها مكاناً رحباً فسيحاً قد فرش بالعشب المتكاثف وقامت فى أطرافه نجوم وأزهار لاذت بهذه الأشجار الضخام الطوال كأنما تحتمى بضخامتها وطولها من العاديات .

هنالك وقف الملك فأطال الوقوف ، وتنفس هذا الهواء العذب الرطب فأطال التنفس ، ثم جلس على الأرض متهالكاً متثاقلاً ، ثم أسلم نفسه إلى ما حوله فلم يشعر بشىء ولم يحس شيئاً . ولكنه يفيق من نومه مذعوراً أو كالمذعور ، فقد سمع صوتاً حلواً يشبه صوت الماء وهو يتحدر فى غديره ذاك بين النرجس والياسمين لولا أن فى هذا الصوت حياة لم يتعود أن يجدها فى خرير الغدير، ولولا أن فى هذا الصوت تقطعاً وتكسراً وتهالكاً لم يتعود أن يجد مثله فى تحدر الماء بين النرجس والياسمين . ويفتح الملك عينيه فيرى فتنة لا تلبث أن تملك عليه سمعه وبصره وقلبه وعقله جميعاً .

هذه شهرزاد قائمة منه غير بعيد ، تنظر إليه نظرات فيها الحنان والمكر ، وهى مغرقة فى ضحك هادىء عذب يرتفع له صدرها وينخفض ، ويغشّى وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل . وهذا الملك ينظر إليها مسحوراً مبهوراً وهى تضحك من ذهوله وحيرته ؛ ولكنه ينهض خفيفاً ويسعى سريعاً ، حتى إذا بلغها أو كاد جثا أمامها غاضًّا بصره إلى الأرض رافعاً يديه إلى السماء كأنه المؤمن الذى يتقرب إلى التمثال . وهى تضع

يدها على رأسه ضاحكة كأنها تبارك عليه ، ولكنها لا تلبث أن تستحيل إلى حنان خالص ، و إذا هى تميل إليه مترفقة فتضع على جبهته قبلة حلوة حارة طويلة . ولو أنها تحدثت فى تلك اللحظة لأحس شهريار فى صوتها تهدج العبرات التى تريد أن تندفع من العيون ، ولكن الإرادة القوية تمسكها فيظهر أثر هذا الصراع فى الصوت المحتبس والألفاظ التى لا تبين . ولكنها لم تقل شيئاً وإنما استقام قدها المعتدل وامتدت يدها الرخصة إلى الملك فأنهضته صامتة ، واستجاب لها الملك صامتاً طيعاً ، فمضت به خطوات إلى نشز من الأرض قريب يكسوه العشب ، فأجلسته وجلست إلى جانبه ، وأحاطت عنقه بيدها ثم أمالته فى رفق حتى وضعت رأسه على كتفها ، وظلت تنظر إليه ، وظل هو ينظر إليها وهما مغرقان فى صمت عميق . ثم يسمعها شهريار تتحدث إليه فى صوت هادئ وادع وهى تقول له : « ألم يان لنا بعد أن تهبط من السماء وأن ننزل إلى الأرض فنعيش فيها مع الناس ؟ »

ولكن شهريار لا يجيبها ، وإنما تنحدر من عينيه دمعتان هادئتان تمسحهما شهرزاد فى رفق ، ثم تنعطف إلى الملك فتقبل جبهته مرة أخرى ، ثم تقيمه حتى إذا استوى فى مجلسه جعلت تمر

أصابعها فى شعره رفيقة به باسمة له مطيلة النظر إليه صامتة مع ذلك لا تقول شيئاً . وكأن هذا العطف الصامت الحار قد بعث الحياة والنشاط فى قلب الملك وجسمه وفى عقل الملك و إرادته ؛ فهو يرفع رأسه إلى شهرزاد و يسألها فى صوت كأنه يأتى من بعيد : « ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين ؟ » . قالت وقد استردت نشاطها ومرحها وانحسر عنها العطف والحنان كما ينحسر البحر عن الساحل ساعة الجزر و بدت مداعبة شموساً : « من أنا ! أنا شهرزاد التى أمتعتك بقصصها أعواماً لأنها كانت خائفة منك ، والتى تمتعك بحبها الآن لأنها واثقة بك مطمئنة إليك . وماذا أريد ! أريد أن أرى مولاى الملك راضياً سعيداً ناعم البال رخىّ العيش مبتسما للحياة كما تبتسم له الحياة » . ولم يكد شهريار يسمع هذا الصوت الحلو يحمل إليه هـذه الألفاظ الساحرة حتى أطرق إلى الأرض غاضًّا بصره متهالكا ، كأنه الطائر القوى ، هم أن يرتفع فى أجواء السماء فأثقلته قوة قاهرة لم يستطع لها مقاومة ، فارتدّ إلى الأرض وجثم عليها مذعناً مقهوراً . وتدنو منه شهر زاد فتمسح على رأسه وتنظر فى وجهه وترسل إليه هذه الابتسامة الغامضة فيتلقاها مشفقاً مغيظاً فى وقت واحد . ثم

يظلان على هذا الوضع لحظات ، وإذا هو يسألها : « ألا تجلسين ! » . فتستجيب له كما تستجيب الأمة الخاضعة للسيد المتسلط . فلا يزيده هذا إلا حيرة وغيظاً . وهو يعيد سؤاله فى صوته الهادئ الذى كأنه يأتى من بعيد : « ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت !. وماذا تريدين ؟ » . فتجيبه هذه المرة فى صوت جادّ فيه كثير من الرحمة والحنان : « من أنا ! أنا شهرزاد التى أحبتك قبل أن تعرفك كما لم تحب فتاة رجلا قط، والتى خافتك حين عرفتك خوفا لم يخفه إنسان انساناً قط ، والتى زفت إليك تتحدى الموت وتتحدى السلطان وتتحدى الحب والبغض جميعاً ، فبلغت من نفسك هذه المنزلة التى تراها أو التى لا تراها، ثم أصبحت الآن وهى لا تفكر إلا فيك ولا تفكر إلا بك ولا تفكر إلا لك . ماذا أريد ! أريد أن تكون سعيداً موفوراً ، ولكنى لا أعرف كيف أجعلك سعيداً موفوراً من أنا ... ! أنا من تحب أن ترى فى أى ساعة من ساعات النهار ، وفى أى ساعة من ساعات الليل . أنا أمك حين تحتاج إلى حنان الأم ، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت ، وأنا ابنتك حين تحتاج إلى بر البنت ، وأنا زوجك حين تحتاج إلى عطف الزوج ، وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مرح

الخليلة ، أنا كل هذا . وماذا أريد ! أريد ما تريده الأم لابنها ، وما تريده الأخت لأخيها ، وما تريده البنت لأبيها ، وما تريده الزوج لزوجها الوفى ، وما تريده العشيقة لعشيقها المفتون . وقد سألتنى فألحفت علىّ فى السؤال ، أفتأذن لى فى أن أسألك ؟ » .
فيرفع الملك إليها بصره كالمنكر لما تقول ، ولكنها تتضاحك وتماجن وتسأله : « كيف أراك فى هذا المكان من جنة القصر حين كان ينبغى أن أراك فى غرفتك تتهيأ للخروج إلى حيث تستقبل وزراءك وتصرّف أمور ملكك ، أو أراك قد خرجت مبكراً فأقبلت على شؤون الدولة تصرّفها حفيًّا بها منكبًّا عليها . وكيف أذنت لنفسك فى أن تنسلّ من غرفتك على هذا النحو الذى لم يعتده الملوك ، وعلى هذا النحو الذى لم يألفه المحبون ؟ فأنت لم تؤذن أحداً من رجال حاشيتك بأنك مقبل على هذا المكان القصىّ . ولولا أنك مراقب فى قصرك كما يراقب أشد الناس عداء للدولة وخطراً عليها لوجدت مشقة كل المشقة فى الاهتداء إلى مكانك هذا . ثم أنت لم تؤذنّى ولم تؤذن أحداً من وصائفى بسعيك إلى هذا المكان . وقد كنت خليقاً أن تذكر أنى لا أكاد أنهض من مضجعى وأفرغ من زينتى حتى أسعى إلى

غرفتك لتكون أول من يرانى ولأكون أول من يراك . أترى إلى ذنوبك يا مولاى ! إنها عظيمة جسيمة ، وإنك خليق أن تستغفر منها إلى أمتك هـذه التى تعفيك من الاعتذار وتستغفرك من تحدثها إليك فى هذه اللهجة القاسية التى إن صورت شيئاً فإنما تصور الحب والإشفاق والحنان » .

ثم تضمه إليها وهى تقول : « حدثنى الآن كيف انتهيت إلى هذا المكان ! أم تريد أن أحدثك أنا بهذا الحديث ؟ » . قال شهريار : « وإنك لتعلمين كيف انتهيت إلى هذا المكان؟ » . قالت وقد عادت إلى ابتسامها الغامض وصوتها الغريب: « إنك يامولاى ملك عظيم ، ولكنك على ذلك تمر بأطوار الطفل الصغير . وأى عسر فى أن أقص عليك بدء حديثك ؟ لقد أيقظتك أمس حين أوشكت الشمس أن تزول ، وأنبأتنى بأنك قضيت الليل مؤرقاً مسهداً . ولقد اجتهدت فى أن أسرِّى عنك وأردك إلى ما ينبغى لك من الدعة والرضا ، وخيِّل إلىَّ أنى تركتك أمس راضياً محبوراً ، ولكنى استيقظت مبكرة وأسرعت إلى غرفتك ، فلما لم أرك فيها ورأيت بابها إلى الطنف مفتوحاً استيقنت أنك قد أرقت من ليلتك هذه أكثر مما أرقت فى ليلتك تلك ، واستيقنت أنك قد

ضقت بغرفتك فخرجت منها مع الصبح وأخذت طريقك إلى مكان عزلتك هذا ، فتبعتك حتى ألفيتك مغرقاً فى هذا النوم الذى أغراه بك الجهد والإعياء ، أليس هذا كل حديثك يا مولاى ! أمحتاجة أنا إلى ذكاء الرجال أو إلى كيد النساء لأعلم علمه ثم لأعيده عليك كما كان ؟ »

وانتظرت أن يجيبها شهريار ولكنه لم يحر جواباً . فعادت إليه تسأله متلطفة : أمستخذون نحن من هذه القصة ؟ إنها لا تدل على براعة ولا على مهارة ولا على قوة وأيد ، وإنما تدل على ضعف وتهالك وانحلال فى الأعصاب ، ومن أجل ذلك فكرت فى أن أطبّ لك حتى أشفيك من هذه العلة التى لا أعرفها وما أراك تعرفها ، ولكنى سأبرئك منها على كل حال » . قال مبتسماً : « وكيف تبرئيننى من داء لا تعرفينه ؟ » . قالت فى صوت المرحة المتمردة : « فإنى طبيبة لا كالأطباء ، أداوى ما أجهل وأداوى ما أعرف ، وربما كنت على علاج الداء المجهول أقدر منى على علاج الداء المعروف » . قال وقد اتسع ابتسامه وأوشك أن يكون ضحكا : « وكيف ذاك ؟ » . قالت : « ذاك أنى سأقلب نفسك على جميع وجوهها ، وسأرسل عليها من نفسى قوة لا تعرفها ولا

تقدرها ، وسأرد عليك ما فقدت من بأس وأيد . إنك لاتعرفنى . ألست تقول لى ذلك فى كل وقت ؟ » : قال شهريار حازماً : « فهذه علتى » . قالت : « سأبرئك منها » . قال : « ستعرّفيننى نفسك إذاً ؟ » . قالت فى كثير من الدل : « سأعرفك منها ما ينبغى أن تعرف لتسترد قوتك ونشاطك ؟ ولتعنى برعيتك هذه التى أخذت تهملها منذ حين . على أنى لا أدرى لماذا تريد أن تعرفنى . أضقت بحبى إلى هذا الحد ؟ » .

فنظر إليها حائراً كأنه لم يفهم عنها . قالت فى دلال وحدّة : « لا تنظر إلىّ هذه النظرات الحائرة ! إنك ملك عظيم تدبر أمور رعية لا تكاد تحصى . وقد بلغت سنك هذه التى لا يبلغها الرجل حتى يكون قد خبر الدهر وانتفع بتجاربه . ألم تعلم بعد أن الحب لا يقتله شىء كما تقتله المعرفة ؟ إن كنت زاهداً فى حبى ضيّقاً به ، فإنى أستطيع أن أشفيك من علتك فأظهرك من نفسى على جميع أثنائها وأحنائها ، ويومئذ تنصرف عنى وتزهد فىّ . ومن يدرى ! لعلك تلحقنى بأولئك النساء اللاتى أرسلتهن إلى العالم الآخر . ولكنى أنا لم أزهد فى حبك ولم أزهد فى الحياة بعد ، وإذاً فلن أمكنك من الانصراف عنى والزهد فىّ .

و إذاً فستسعى دائماً إلى أن تعرفنى ، وسيخفى دائماً عليك منى بعض الشىء، وستحبنى ما دمت تجهلنى ، وستجد من هذه الحرب بين الحب والمعرفة قوة تحبب إليك الحياة وترغبك فيها . ولكن أين نحن الآن من النهار ؟ وأين نحن الآن من شؤون الملك ؟ وأين نحن الآن من شؤن أنفسنا ؟ ألا تحس ألم الجوع ؟ إنى لا أكاد أستقر من شدة ما أجد من هذا الألم . ولـكن انتظر قليلاً » . ثم تضرب إحدى يديها بالأخرى مرة ومرة و إذا الخدم يسعون وهم يحملون إلى الملك والملكة ما يحتاجان اليه من طعام وشراب . ويهمّ أن يتكلم ولكنها تسبقه إلى الكلام فتقول ضاحكة: «أنت أسيرى منذ الآن يامولاى، لن أفارقك حتى تفارقك علتك . إن غرفتك حرام عليك ، ستنفق الليل فى غرفتى ، سأسلمك إلى النوم وديعة محفوظة ، وسأستردك من النوم كما يسترد المودع وديعته ، وسألزمك حتى تضرع إلىّ فى أن أريحك من نفسى ساعة أو بعض ساعة » . قالت ذلك وانحنت إليه فقبّلت بين عينيه والخدم ينظرون و ينظمون المائدة . ولكن شهريار لم يقل شيئاً ، ولو كشف لنا عن نفسه لما عرفنا أكان سعيداً أم كان شقيًّا . فقد كان أحب شىء إليه أن يكون أسير شهرزاد ، ولكنه كان

يشفق أن تُسلمه شهرزاد إلى النوم وأن تأمر النوم فيحتفظ به حتى يرده إليها وتفوته بذلك أحلام شهرزاد . على أنه لم يكد يعود إلى طبيعته المألوفة التى رده إليها إقدامه على الطعام والشراب والحديث حتى نسى الليل وسهوده وهجوده ووطّن نفسه مسروراً محبوراً على أن ساعة مع شهرزاد خير من كل أيامه تلك التى كان يحياها منفرداً أو كالمنفرد ، لا يلقى زوجه إلا بمقدار وعلى ميعاد ، حسب ما تقتضيه ظروف الحياة للملوك الذين أثقلت قصورهم التقاليد التى تراكم بعضها فوق بعض على مر الدهور واختلاف الأجيال . وما يمنعه وقد فتحت له شهرزاد هذا الباب الذى لم يكن ينتظر أن يفتح له ، ما يمنعه أن يتمارض ويتكلف العلة ويلقى إلى وزيره مقاليد الدولة يدبرها كما يشاء أو كما يستطيع حتى يبل هو من مرضه أو من تمارضه ! ! ما يمنعه أن يتكلف العلة ليخلص لشهرزاد ما دامت هى تريد أن تخلص له ! ولكن ما الذى حملها على أن تلقاه بهذا العطف الذى لم يتعوّده ، وبهذا الحنان الذى لم يألفه ! أتراها صادقة فيما تظهر من ذلك أم تراها متكلفة ؟ ! وما الذى يدعوها إلى هذا التكلف وهى تعلم حق العلم أنها مستأثرة بقلب الملك وعقله تأمرهما بما تشاء دون أن

تخشى منهما امتناعاً عليها ، وتنهاهما عما تشاء دون أن تخشى منهما خلافاً ، وهى أكرم على نفسها وأرفع فى نفسها من أن تتملق رجلاً أو تتلطف له مهما يكن ؟ ! . هى إذاً لا تتكلف هذه العواطف ، ولكنها مع ذلك لم تألف هذه العواطف ولم يألفها منها شهريار ؛ وإنما هى غامضة دائماً مدلة دائماً ، لا تدنيه إلا لتقصيه ، ولا تلطف به إلا لتعنف عليه . أفتراها قد وصلت إلى دخيلة نفسه ووقفت على جلية أمره وعرفت أنه مريض حقاً وأشفقت عليه من هذا المرض ، فهى تريد صادقة أن تبره وترفق به وتطبّ لعلته حتى يبرأ ؟ كل ذلك ممكن وغير ذلك ممكن سواء منه ما عرفه شهريار وما لم يعرفه . فقد استقر فى نفسه أن صاحبته بحر لا يسبر غوره ، وليل لا تنجلى ظلمه ، ولغز لا تحل مشكلاته . وهو على ذلك ناعم بعشرتها سعيد بما تحمله عليه من الرضا والسخط ، ومن اللذة والألم ، ومن النعيم والبؤس ، ومن الظفر والحرمان . فلينتهز إذاً هذه الفرصة التى هيئت له ، ولينعم بهذه السعادة التى تعرض عليه ، وليعش فى ظل شهرزاد ناعماً بائساً وسعيداً شقياً كما تعيش رعيته فى ظله هو ناعمة بائسة وسعيدة شقيّة . وقد كان يظن أنه الملك ، وأن كلمته هى العليا ، وأن أمره

هو المطاع الذى لا معقب له ، فقد ظهر الآن أن هناك ملكاً أقوى منه وأعظم سلطاناً، وأنه هو الرعية لهذا الملك . وهل شهرزاد آخر الأمر إلا قوة متسلطة عليه تصرّفه كما تريد وتدبر أمره كما تهوى دون أن يستطيع امتناعاً عليها أو إباء !

وكذلك أنفق شهريار نهاره الأول كالطفل خاضعاً لسلطان أمه الحنون تأمره فيأتمر وتنهاه فينتهى ، واجداً فى ذلك اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم . وكانت شهرزاد رفيقة به إلى أقصى غايات الرفق ، محبة له إلى أبعد آماد الحب ، تصرفه فى فنون الهزل والجد وتنقله فى أطوار المرح والهدوء ، حتى إذا ضرب الليل سرادقه المظلم الكثيف على الكون أوت به إلى غرفة من غرفاتها فتحدثت إليه فنوناً من الحديث وأسمعته ألواناً من الغناء وضروباً من الموسيقى . ثم أقبلت إليه آخر الأمر باسمة هادئة وقالت له فى صوت متكسر بعض التكسر فاتر بعض الفتور : « قد آن للطفل أن يستريح إلى النوم فيما أظن ، هلمّ إلى مضجعك يامولاى » . ثم أخذت بيده ومضت وهو يتبعها مستسلماً محبًّا لهذا الاستسلام منكراً له فى قرارة نفسه ، سائلاً عن إرادته أين ندَّت ، وعن قوته أين شردت ، راجياً ألا تعود إليه هذه الإرادة وألا ترد إليه هذه

القوة. فمن الخير أن ينعم الإنسان « بإجازة » يستريح فيها من إرادته وقوته ومن ملكات نفسه كلها. وقد أذن لشهريار بهذه الإجازة فهو ينعم بها غارقاً فى لذاتها إلى أذنيه. وها هو ذا قد أوى إلى سريره، وها هى هذه شهرزاد تسوّى له الوسائد حتى تطمئن إلى أنه قد استراح فى مضجعه. ثم تنصرف عنه لنفسها شيئاً، ثم تعود إلى الغرفة فتمضى فيها ذاهبة آئبة مختلسة نظرة بين حين وحين إلى طفلها هذا الكبير. حتى إذا رأته قد اطمأن إلى النوم ومضى معه فى طرقه المجهولة أوت هى إلى سريرها فغاصت فيه غوصاً ودعت النوم فما أسرع ما استجاب لها وشمل الغرفة هدوء متصل.

أطال هذا الهدوء أم قصر؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك: فقد كان الليل قد قطع فى طريقه شوطاً بعيداً قبل أن ينام العاشقان، ولكن شهريار ينتبه من نومه هادئاً مطمئناً لا يقول شيئاً ولا يأتى حركة، وإنما يمد سمعه نحو سرير شهرزاد فقد ألمّ به طائفه ذاك فمسّ كتفه مسًّا رفيقاً وألقى فى رُوعه هذه الجملة: « أفق ولا تحدث حساً فقد آن أن تستمع لحديث شهرزاد ».

٤

ولا يطول انتظار الملك ، ولكنه يسمع قائلاً يقول : « فلما كانت الليلة الحادية عشرة بعد الألف قالت شهرزاد . . . » ، ثم ينقطع هذا الصوت ، ويبلغ أذن الملك صوت شهرزاد رقيقاً رشيقاً وهى تقول : « بلغنى أيها الملك السعيد أن وزير الملك طهمان بن زهمان اضطر إلى إخفاء ما فى نفسه من الخوف على المدينة وأهلها مما أزمعت فاتنة ، وخرج وهو يقول للملك : « إنه مبلغٌ تحدّى الأميرة لملوك الجن جميعاً » .

فلما خلا الملك إلى ابنته قال لها فى صوت باسم يملؤه الحنان : « فستأذنين لى فى أن أحدثك بما أبيت أن تسمعيه من الوزراء ورجال القصر ؛ فإنهم يا ابنتى قد أشفقوا على أنفسهم ومدينتهم وأهل المملكة جميعاً من هول هذه الحرب التى تتعجلينها وهم يعلمون أن أهوال الحرب لن تبلغك ولن تبلغنى فإن لك ولى من ملكنا عصمة وَوَزَراً . ولكنها ستبلغهم هم ، وستعرّض شبابهم للموت ، وستعرّض أطفالهم لليتم ، وستعرّض شيوخهم للبؤس والثكل ، وستعرّض نساءهم للتأيم والشقاء ، وستعرّض أموالهم للفناء ،

ستصب عليهم البؤس صبًّا فى ألوانه المختلفة التى لم نذقها ولا ينتظر أن نذوقها ، ولكننا نعلم ما نعلم من أمرها بما نقرأ فى الكتب وما نسمع فى الأحاديث ، وقلما نراها رأى العين أو نحسها إحساساً مباشراً . فنحن لا نتنزل إلى مخالطة الرعية لنشهدها حين تبتهج وحين تبتئس وحين يمسها جناح من لين أو يصيبها عارض من شدة . فلهم العذر يا ابنتى إن ارتاعوا أو التاعوا أو أشفقوا من هذا المكروه الذى يوشك أن يلم بهم فلا يبقى عليهم . وفى قلوبنا نحن الرجال قسوة ، وفى أكبادنا غلظ ، وفى طبائعنا شدة وعنف . ولكن قلوب النساء رحيمة ، وأكبادهن رقيقة ، وطباعهن لينة صافية . فإذ دبّر ملوك الجن ما دبروا وقدّروا أن ينصبوا لنا الحرب فقد كنت أنا خليقاً أن ألقاهم بهذه الشدة ، وأن أنصب لهم حرباً كالتى يريدون أن ينصبوها لى ، وأن أكيد لهم كما يكيدون لى . وكنت أنت خليقة يا ابنتى أن تشفقى من هذا الهول ، وأن ترفقى بالرعية ، وأن تقترحى علىّ وعلى الوزراء من وسائل السلم ما يردّ عن الناس هذا المكروه . ولكنهم يا ابنتى قد رأونى صامتاً لا آمر ولا أنهى ، ورأوك مقدمة على هذا الآمر العظيم لا تحسبين حساباً لنعيمهم الضائع و بؤسهم

الواقع ، فأنكروا فى نفوسهم وهمّوا أن يجهروا بما أضمرت قلوبهم . ولكنهم خافوك وخافونى فأذعنوا للأمر على كره منهم ولم يقولوا شيئاً ، أو هم خافوك أنت ولم يخافونى ، أنا ؛ فقد أصبحتُ شيئاً لا يخاف ، و إنما أنا هامة اليوم أو غد كما يقول حمقى الناس من حولنا ، وجذوة اليوم أو غد كما ينبغى أن نقول نحن فى لغتنا . ومهما يكن من شىء فإنهم خافوك يا ابنتى لأن أمرهم إليك غداً أو بعد غد ؛ ولم يخافونى أنا لأنى متصل بالماضى الذى ليس إلى رجوعه من سبيل . »

وهمّت فاتنة أن ترد على أبيها ، ولكنه مضى فى حديثه مترفقاً فقال : « ويظهر يا ابنتى أن الشيخوخة تدنينا من العقل أو تدنينا من الجنون أو تدنينا منهما جميعاً . ولست أدرى أحزم ما يضطرب فى نفسى من الخواطر أم حمق ، ولكنى ملقيه إليك على علاته ، فخذيه منى كما هو وافعلى به بعد ذلك ما تريدين ؛ فقد وصلت إلى السن التى لا أستطيع أو لا أريد أن أبرم فيها أمراً . فيم يدبّر ملوك الجن لنا هذا الكيد ؟ وفيم ينصبون لنا هذه الحرب ؟ وفيم تلقين كيدهم بمثله وتهيئين لحربهم حرباً مثلها ؟ فى شىء لا يعنى رعاياهم ولا رعيتنا من قريب أو بعيد . هم يحبونك

ويتنافسون فيك ، وأنت تزدرينهم وتترفعين عنهم وتمتنعين عليهم . وماذا يعنى رعايانا البائسين مما نجد من الحب والبغض ، ومما نحس من العشق والهيام ! . إنهم لا ينعمون حين ننعم ، ولا يبتئسون حين نبتئس ؛ وانما تجرى حظوظهم من النعيم والبؤس على قوانين لا صلة بينها و بين ما نستمتع به من سعادة ، أو نرزح تحته من شقاء . ومن القسوة يا ابنتى أن ننعم وهم بائسون ، وأن نقوى وهم ضعفاء ، و نُثرى وهم فقراء ، نستمد من بؤسهم نعيما ، ومن ضعفهم قوة ، ومن فقرهم ثراء . فكيف نضحِّى بهم فى سبيل أهوائنا وشهواتنا وعواطف قلوبنا ، ونزعات نفوسنا ! . لو رفقت بهم يا ابنتى لَجَنَّبْتِهِم هذه الحرب التى يدبرها عشاقك ، وهذه الحرب التى تدبرينها أنت لهؤلاء العشاق ، ولاخترت لنفسك من بين هؤلاء الملوك زوجاً تنعمين بعشرته وينعم بعشرتك . ومن يدرى ! لعل رعيتكما أن تصيب أطرافاً من هذا النعيم . ولكنك ياابنتى لا تجنبينهم حرباً ، و إنما تدفعينهم إليها دفعاً ، كما يدفع الوقود إلى النار المضطرمة التى لا تشبع مهما يقدَّم لها من الحطب . وأمرك فى ذلك كأمر عشاقك جميعاً ، كلكم يتبع هواه الجامح ، ويركب شهوته المندفعة ، ويضحى فى سبيل نفسه

بكل شيء وبكل حي . وليس هذا حقاً ، وليس هذا عدلاً . وقد كنت أعجب آنفاً بما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة يا ابنتي ، ولكني أجد الآن حزناً لاذعاً يؤذي شيخوختي المتهالكة ؛ لأن ما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة لم يهيئ لك وسيلة تسعدين بها غيرك كما هيأ لك هذه الوسائل التي ترضين بها هواك ، وتحققين بها مآربك ، وتظهرين بها على عدوك . وقد يكون كلامي هذا ثقيلاً عليك يا ابنتي ؛ فإني جربت الملك من قبلك ، وعرفت أن الحق لا يبلغ من المرارة في نفس أحد ما يبلغه في نفوس الملوك ، وعرفت أن النصح لا يثقل على أحد كما يثقل عليهم . فلكل امرىء من نفسه ما تعود ، كما سيقول شاعر من الناس فيما يقبل من الزمان . ونحن قد تعودنا أن تستقيم لنا الأمور، وأن تجرى لنا على ما نريد لا على ما يريد غيرنا . ونحن قد ألفنا أن نأمر ولا نأتمر ، وأن ننهى ولا ننتهى ، وأن نطاع ولا نطيع ؛ فأصبح الشذوذ لنا طبيعة ، والجموح لنا فطرة ، والاستبداد بالحياة والأحياء لنا قانوناً . فإذا تحدث إلينا متحدث بالحق ، أو دعانا داع إلى العدل ، أو رغبنا مرغب في أن ننصف من أنفسنا كما ننتصف لها ، ضقنا بذلك

أشد الضيق ، وكرهناه أعظم الكره ونكّلنا بمن يدعونا إليه أو يرغبنا فيه تنكيلا . ولو أن وزيرنا قال لك بعض ما قلته الآن لأرسلته إلى الموت ، أو لألقيته فى غيابات السجن ؛ وهو من أجل ذلك لم يقل لك شيئاً ، ولكنه قدّر فى نفسه كل ما قلت لك .

ففكّرى يا ابنتى فى رعيتك وارفقى بها ، بل فكّرى فى رعايا عشاقك وارفقى بهم؛ فإن نعيم ساعة أو نعيم عام أو نعيم الدهر كله إن ظفرت به لا يعدل نفساً من هذه النفوس الكثيرة التى ستزهق ولا قطرة من هذه الدماء الغزيرة التى ستراق . أتسمعين لى يا ابنتى أم أنت ذاهلة عنى مشغولة بتدبير أمرك هذا الذى تُقدمين عليه ! »

قالت فاتنة وقد غشى وجهها شىء من كآبة لم يلبث أن جاته ابتسامة حلوة : « لقد استمعت لك يا أبت فأحسنت الاستماع . وما ينبغى أن أذهل عما تقول أو ما تعمل . ومنك تعلمت أدب الحديث وأدب الاستماع وآداب الملك كلها . وما قلت لى يا أبت إلا الحق وما دعوتنى إلا إلى الرشد . ولكن أمن الحق أن أكره على ما لا أريد ! . إن هؤلاء الذين يخطبوننى إليك يعلمون حق العلم أنى لا أحب منهم أحداً ، ولا أبغض منهم أحداً ، ولن أتزوج

منهم أحداً . أفإن نصبوا لى الحرب ليكرهونى على ما لا أحب ويحملونى على ما لا أرضى ، فلقيت كيدهم بكيد مثله ، ودفعتهم عن نفسى بما تعوّدنا أن ندفع به عن أنفسنا ، أكون ظالمة آثمة ! فالتمس لى إذاً يا أبت فرجا من هذا الحرج ، ومخرجاً من هذا المأزق . وهل يقصر إثم الحرب على هذه الحرب التى نحن مقدمون عليها ! ومتى رأيت الملوك يُقدمون على حرب لا تدفعهم اليها شهواتهم الجامحة وعواطفهم الجائرة ! ومتى رأيت الشعوب تُجْنَب هذه الأهوال وتُعْصَم من الحرب لغير مصالحها المؤكدة ومنافعها المحققة ! إن أثرة الملوك والسادة والزعماء هى التى تثير الحرب دائماً وهى التى ترهق الشعوب دائماً . وأكاد أعتقد أن الشعوب إنما خلقت ليرهقها الملوك والزعماء بالحرب والسلم جميعا . فليست الشعوب أعظم حظًّا من السعادة أثناء السلم منها أثناء الحرب . إنا ندفعها إلى الموت حين نحارب ، وندفعها إلى البؤس والشقاء حين نسالم ، فهى ضحية لنا على كل حال » .

قال الملك : فقد كنت أرجو أن يهيىء لك علمك وحكمتك ابتكار لون من ألوان الحياة لا تشقى فيه الشعوب بسعادة الملوك والزعماء . ولكنى أراك تسيرين فى الطريق التى سار فيها الملوك من

قبلك . . وقد كنت أنتظر غير هذا ؛ ولكن الظنون تكذب والآمال تخيب » .

قالت فاتنة : « لقد صدقت يا أبت ! إن الظنون تكذب وإن الآمال تخيب . وما أكثر ما كذبت ظنوني وخابت آمالي ! وإنك لترى وجهي مشرقاً وثغري باسماً وعينيَّ تفيضان بهجة وبشراً ، ولو اطَّلعت على ضميري وقرأت دخيلة نفسي لرأيت حزناً أي حزن ، وشقاء أي شقاء ، وشعوراً هو أقرب إلى اليأس والقنوط منه إلى أي شيء آخر . وإني لأحدثك بهذا كله كارهة وما كنت أريد أن أظهرك منه على شيء ؛ فأنا شديدة الحرص على ألا ترى مني ولا ترى عندي إلا ما تحب . ولكنك قد باديتني بما تجد محسناً بذلك إليّ ، فلا بد من أن أباديك بما أجد مسيئة بذلك إليك . وليست هذه أول مرة آذيت فيها نفسك الكريمة ، ونغصت فيها عليك بما يعتادني من همٍّ مقيم . إنك يا أبت مستيئس مني لأني أسلك الطريق التي سلكها الملوك والأمراء من قبل . فأحيا لنفسي لا لغيري . ولا أرفق بهذه الرعية التي لا يرفق بها أحد قط . وهذا نفسه هو مصدر شقائي وبؤسي . فأنبئني يا أبت ما بال هذه الرعية لا ترفق بنفسها ولا تعنى بأمرها ولا تفكر في مصلحتها ، وإنما

ندعوها فتجيب ، ونأمرها فتطيع . ونوجهها إلى حيث نشاء فتتجه إلى حيث نشاء ، لا يخطر لها أن تأبى إذا بلغها الدعاء ، ولا أن تعصى إذا صدر إليها الأمر ، ولا أن تمتنع إذا وُجِّهت إلى حيث لا تحب ؟ ! أفنكون أرفق بها من نفسها ، وأحرص على مصالحها ، وكرامتها مما تحرص هى على مصالحها وكرامتها !

ومع ذلك فأين يكون الفرق بينها و بيننا ! أليس الرجال منها والنساء والشباب منها والشيوخ يشعرون كما نشعر ، ويحسون كما نحس ، ويجدون اللذة والألم ، كما نجد نحن اللذة والألم ، ويحبون الخير ويكرهون الشر ، كما نحب نحن الخير ونكره الشر ! فما طاعتها لنا فى غير روية ولا تفكير ، بل فى غير فهم لما تؤمر به وتقدير لما تدعى إليه ! أترى أنا خلقنا من عنصر غير عنصرها ، أو أنها خلقت من نار غير التى خُلقنا منها !

لقد كنت أفهم أن نتسلط على الناس فلا يستطيعون لنا مقاومة ولا يحاولون علينا امتناعاً ؛ فنحن من نار وهم من طين . فأما أن نتسلط على الجن الذين خلقوا من عنصرنا فلا نجد منهم إلا الإذعان والاستسلام كما يتسلط ملوك الناس على الناس فلا يجدون منهم إلا الإذعان والاستسلام ، فهذا هو الذى يحيِّر عقلى ويذهل لُبِّى

ويُبكِلُّ خاطرى ويدفعنى إلى اليأس ويحملنى على أن أسلك الطريق التى سلكها الملوك من قبلى » .

قال الملك : « فإن قلبك فى حاجة إلى الرحمة يا ابنتى ، وعقلك فى حاجة إلى أن يكون أقوم تقديراً للأمور . لقد نشأت على السلطان وتعوّدت حقوقه وواجباته . هُيِّئت لذلك منذ درجت، وهُيِّئ له من قبلك آباؤك وأمهاتك . ونشأت الرعية على عكس ما نشأت أنت عليه وعُوِّدَت غير ما عُوِّدتِ، وهُيِّئت لغير ما هُيِّئتِ له منذ الزمان القديم الذى لا نعرف له أولا . وكان هذا التفريق بين السيد والمسود خطأ . أفينبغى أن يستمر الخطأ ! أليس من الممكن وقد ارتقت عقولنا ونفذت أبصارنا إلى كثير من حقائق الأشياء وعلمنا أن هذه الفروق بيننا وبين الرعية مصطنعة لم تأت من الطبيعة وإنما جاءت من الحضارة ، أفليس من الممكن أن نصحح أغلاطنا ونقوم اعوجاجنا ! بل أليس من الممكن أن نصحح أغلاط الطبيعة إن كانت هذه الفروق قد جاءت من الطبيعة ! بلى ! هذا ممكن ، هذا واجب يا ابنتى . ولكن لابد لنهوض بهذا الواجب من أن نُشْعِرَ قلوبنا الرحمة والإحسان ، ومن أن نؤمن بأن حياة الملوك ليست حقوقاً كلها ولكنها واجبات أيضاً ، وربما كان نصيب

الواجب فيها أعظم من نصيب الحق . ما الذى يمنعنا أن نُشعر الرعية بنفسها ونبصّرها بحقها كما بصّرناها بواجبها، ونهيئها لا أقول لتستأثر من دوننا بالأمر ، ولكن لتشاركنا فى الأمر وتعيننا على احتمال أعبائه الثقال ! » .

قالت فاتنة : « ومن أجل ذلك أنشأتَ المدارس يا أبت ، وأذعت العلم وقد كان سرًا مكتوماً . ومن أجل ذلك رفعتَ إليك بعض النابهين من الدهماء فكفتهم ما كلفتهم من أعمال الدولة وقد كانت أعمال الدولة مقصورة على أفراد أسرتنا . ومن أجل ذلك عرّضت نفسك لسخط الأمراء وكيد الشيوخ من رؤساء العشائر وقد وصلت إلى كثير مما كنت تريد . فلولا هذه السيرة التى سرتها فى الرعية لما ثار الاعتراض فى نفوس الوزراء ورجال الحاشية حين أمرتهم أمرى فأذعنوا له كارهين . هم الآن يُضمرون الاعتراض وقد كانوا لا يشعرون به من قبل . أفهذا هو الذى أردت إليه ؟ » .

قال الملك : « هو هذا يا ابنتى » .

قالت فاتنة ، وقد وثبت إلى أبيها فضمته فى رشاقة وقبّلته فى عنف : « وهو ما أريد إليه أيضاً . ولتطب نفسك ولتقرّ

عينك ، فلن يصيب الرعية من هذه الحرب التى أثيرها سوء » .

قال الملك وهو يتضاحك : « ماذا تقولين يا ابنتى ! حرب لا يصيب الرعية منها سوء ! أحرب هى أم لعب ؟! » . قالت : « بل هى الحرب كل الحرب » . قال « أوضحى يا ابنتى عما تريدين ؛ فإنى لا أفهم عنك شيئاً » . قالت : « ذلك سرى الذى ستفهمه حين أزيل عنه الستار » . وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

وهمَّ شهريار حين انقطع حديث النائمة أن يفكر فيما سمع ، ولكن النوم لم يمهله كما كان يمهله من قبل ، وإنما سعى إليه حثيثاً . وسمع الملك صوت طائفه ذاك يقول : « كلا ، لا تفكير الآن ولا يقظة . لقد أودعتك شهرزاد إلى النوم ! وردَّك النوم إليها حين ، فستعود إلى النوم حتى تستردك منه شهرزاد كما تقدَّم إليك وعدها أمس » .

وأكبر الظن أن شهريار لم يسمع هذه الكلمات الأخيرة وإنما أغرق فى نوم هادىء لا تروعه الأحلام ولا يقطعه الأرق . ويفتح عينيه بعد وقت طويل أو قصير فيرى الغرفة وقد أذن لضوء الشمس المشرقة أن يغمرها فظهرت جميلة رائعة متألقة ، ورأى شهرزاد قائمة من سريره غير بعيد وهى تمد إليه بصرها

حلواً مداعباً كأنها تدعوه إلى أن يستيقظ ، وهى مع ذلك صامتة لا تقول شيئاً ، ولكن وجهها يزدان بابتسامة حلوة تبعث الأمل وتدعو إلى النشاط . فلما رآها الملك ابتسم لها ، وهمّ أن يسألها كيف قضت الليل ، ولكنها ابتدرته بالسؤال فقالت : « كيف يجد مولاى نفسه ؟ » . قال : على خير ما أحب أن أكون ما دمت أنعم بقربك وأسعد منك بهذه النظرات الحلوة و بهذه النغمات الساحرة » . قالت : « لقد استيقظ مولاى غزِلاً ، وأحسب أنه قد قضى ليلة هادئة » . قال : « كل الهدوء » . قالت : « ولكنى أسأل مولاى أيجد نفسه من القوة والنشاط والصحة خيراً مما كان أمس ؟ » فتردد الملك قبل أن يجيب . ولكنها لم تُخَلِّ بينه و بين الجواب و إنما قالت : « سأجيب عنك يامولاى ، وسأعفيك من هذه الحيرة ، وسأريحك من كذب لا تحبه ومن صدق لا تجد الشجاعة عليه . فأنت بخير ما فى ذلك شك ، وأنت اليوم خير منك أمس ما فى ذلك شك أيضاً . ولكنك تخشى إن أنبأتنى بذلك أن أخلِّى بينك و بين العمل وتكاليف الملك . و إن أنبأتنى بغير ذلك تستبق هذه الراحة التى أخلدت إليها أن تقول غير الحق . وأنت لا تريد أن تكذب لأنك لا تحب الكذب أو لأنك

تشفق ألا أومن لك . أليس هذا كله حقًّا يا مولاى ؟ ! » .

قال وهو يضحك وقد أخذ يستوى جالساً فى سريره : « هو كل الحق يا أحب الناس إلىّ » .

قالت فى صوت العاتبة وقد مالت إليه تقبّله وتلاطفه : « إنك لأشبه شىء بالطفل الذى يداور أمه أو معلمه الحازم . لا بأس عليك فلن يخَلى بينك وبين العمل ، ولن تحرم جوار شهرزاد . أليس هذا كل ما تريد ؟ » ثم جلست إلى جانبه ، وأدارت ذراعها حول عنقه ، وأخذت تنظر إليه نظرات ملحة كادت ترده من الذهول إلى مثل ما كان فيه من أمسه ، لولا أنها نهضت ثم أنهضته وانصرفت به إلى حيث يستنشقان هواء الصبح مشرفين على جنة القصر من بعض الأطناف .

وقد أنفق الملك يوماً من أسعد أيامه ، لم يعرف فيه ألماً ولا حزناً ، ولم يحس فيه حسرة على ما مضى ولا استطلاعاً لما هو مقبل ، وإنما كان يعيش للساعات التى كان فيها مستمتعاً بهذه اللذات الهادئة المختلفة التى كانت تقدمها إليه شهرزاد فى غير تكلف وفى غير جهد ظاهر . فأما وجه النهار فقد أنفقاه متروضين فى حدائق القصر ، يقفان حيناً ويسعيان حيناً آخر ، ويجلسان حين

يحتاجان إلى الجلوس أو حين يعجبهما هذا الموضع أو ذاك من الحديقة فيحبان أن يطيلا البقاء فيه . أحاديثهما أثناء هذه الرياضة هادئة كنفسيهما لا حوار فيها ولا جدال ولا تعمق فيها لشيء ، وإنما هى أحاديث تجرى على رِسْلها كما كانت حياتهما تجرى على رسلها ، وكما كان النسيم من حولهما يجرى على رسله رُخَاءً ، وكما كانت الغصون تضطرب على رسلها فى الهواء ، وكما كانت الطير تتغنى على رسلها كذلك ، وكما كانت الأزهار تتنفس على رسلها عما تنشر فى الجو من عبير .

وكان شهريار قد انغمس فى هذه الحياة الحلوة الهادئة ، فنسى نفسه ونسى ملكه ونسى خواطره التى كانت تعتده أثناء النهار وخواطره التى كانت تلم به أثناء الليل ، بل نسى شهرزاد نفسها ، ولم يقدر أنها كانت معه تسليه وتلهيه وتأسو جراح نفسه ، وأن هذا النعيم الذى كان يستمتع به إنما هو من صنعها ليس غير . ولكن شهرزاد كانت بارعة فى العناية به والتلطف له حتى أنسته أنه موضوع العناية والرعاية . سحرته عن نفسه وعما حوله بسيرتها ، كما كانت تسحره عن نفسه وعما حوله بقصصها . ويظهر أنه تنبه لذلك فجأة فقطع ما كان يمضى فيه من حديث عادىّ

ورفع رأسه كالواجم ونظر إليها محدِّقاً فيها ، ثم قال لها بصوته الهادىء الذى كأنه يأتى من بعيد : « ألا تنبئينى آخر الأمر مَنْ أنت وماذا تريدين ! »

قالت وهى تضحك ضحكاً ينم عن بعض القلق : « أيكون الملك قد عاد إلى طوره الأول من الاضطراب والذهول أو يعود إلى هذا السؤال الذى لا يغنى شيئاً ولا يدل على شىء ! . . أنا من ترى ومن تسمع ، ومن تحس قربها منك ، وحبها لك ، وفناءها فيك ، وحرصها على أن تملأ نفسك غبطة ، وضميرك بهجة ، وقلبك أمناً وسروراً . إنك لا تسأل هذه الشجرة ولا هذه الزهرة ما هى ولا ماذا تريد ، وإنما تنظر إليها وترضى عنها وتُعْجَب بها ، وتحمد الله على ما أنعم عليك من الاستمتاع بها . فانظر إلىّ كما تنظر إلى هذه الشجرة أو إلى هذه الزهرة ، وخذ منى ما أعطيك وأعطنى ما أسألك إن استطعت ، ولا تكلِّف نفسك أكثر من هذا . عِشْ بحسك وقلبك وضميرك ، وتخفف من عقلك بين حين وحين . عش عيشة الإنسان الحىّ لا عيشة العالم الباحث ؛ فإن للعلم والبحث وقتاً مقسوماً من حياة الناس ، وما ينبغى أن تكون حياتهم كلها علماً وبحثاً وتعليلا وتحليلا » .

قال وقد أدار ذراعه حول خصرها اللطيف الرخص : «فإنى لا أسألك الآن سؤال الباحث المستقصى ، و إنما أسألك سؤال المحب المُدْنَف فقد عرفتك » .

قالت : « قد عرفتنى ! واحَرَباه ! ستزهد فىّ إذاً قبل أن يتقدم النهار » ، ثم أغرقت فى ضحك غامض طويل .

قال : « قد عرفتك ، ولن أزهد فيك ؛ لأن معرفتى إياك تدفعنى على الاستزادة منك ؛ فأنت قصص دائم لأنك سحر دائم ، أخَصُّ ما تمتازين به أنك تشغليننى عن نفسى وعن ملكى وعما حولى وعمن حولى ، بل تشغليننى عنك أيضاً » .

قالت وقد أغرقت فى الضحك : « إن كنت أشغلك حتى عن نفسى فما أدرى كيف تفكر فىّ أو تسأل عنى . ألا يمكن ألا أكون شيئاً ما دمت أشغلك عن كل شىء ! ألا يمكن أن أكون شيئاً غيرك فأنت تُشْغَل بنفسك عن كل شىء وعن كل إنسان ! ولكنك أنبأتنى بأنى أشغلك عن نفسك . صدِّقنى إنى لا أفهم عنك ، وما أرى إلا أنك تمعن فى فلسفة أشد منى غموضاً وأعظم منى استعصاء على الفهم . دع الفلسفة ودع التفكير ، وتعالَ ننعم بهذه الساعات الحلوة التى تتاح لنا والتى

نختلسها أو أختلسها أنا لك ولى من تكاليف الحياة . إنى أشغلك عن نفسك وأشغلك عن نفسى وأشغلك عن كل شىء . ولكن ما رأيك فى أن شيئاً لم يشغلنى عن أن النهار يتقدّم ، وعن أننا نوشك أن نجد لذع الجوع ، وعن أن من الحق علينا أن تتهيأ للغداء ؛ ذلك أحرى أن يتيح لنا الإغراق فى الفلسفة والإمعان فى البحث عما وراء الطبيعة . هَلُم يامولاى ، فسترىأن هذا النعيم الحلو الذى استمتعنا به الآن ليس شيئاً بالقياس إلى ما هيأت لك شهرزاد هذه التى لاتعرف من هى ولا تدرى ماذا تريد » .

وكانت شهرزاد قد هيأت للملك نعيما لم يكن يقدِّر أنه سيتاح له فى يوم من الأيام ، منذ حمرة الدماء تلك التى كانت تصبغ فى نفسه أعقاب الليل ووجه النهار من كل يوم . فقد كان منذ تلك الأيام السود والليالى البيض قد أَلف الحزن حتى لا يفلت منه إلا الحين بعد الحين حين كانت شهرزاد تقص عليه بعض أحاديثها أو تمتِّعه ببعض ما كانت تهدى إليه من سعادة حيناً بعد حين . فأما نعمة البال ورخاء العيش وراحة الضمير وهدوء النفس المتصل فقد كانت أشياء حُرِّمت على شهريار ، وقُطِّعت بينه وبينها الأسباب . فلما تقــدَّم النهار وكاد أن ينتهى أقبلت شهرزاد

بالملك على غرفة من غرفاتها فى القصر وهى تقول له عابثة به :

« ستعلم يا مولاى أنك لا تعرف من قصرك هـذا إلا أقل ما فيه . و إنى لأرجو أن يدعوك ذلك إلى التفكير فيما تعرف من أمور الملك والرعية ؛ فإنك إن جهلت من أمر قصرك وحاشيتك أيسره كنت خليقاً أن تجهل من أمر ملكك ورعيتك أكثر مما تعلم . وكان الحكماء يقولون فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان : إن من أراد أن ينهض بالواجب فى أى أمر من الأمور خليق به أن يعرف ما هو مُقدم عليه و يتبينَ دقائق ما هو ناهض به وحقائق ما هو مدبِّر له ، وألا يُقدِم إلا عن بصيرة ، ولا يعمل إلا عن علم . وما أعرف يا مولاى غروراً كغرور الذين ينهضون بتدبير أمور الناس وهم لا يعرفون من دخائل هؤلاء الناس شيئاً ، أو هم لا يعرفون منها إلا أقلها وأيسرها . إنهم يأمرون دون أن يقدِّروا مقدار احتمال الرعية لما يُصدرون إليها من أمر . وإنهم ينهون دون أن يعرفوا إلى أى حدّ تطيق الرعية أو لا تطيق أن تنأى عما تُنْهَى عنه : لأنهم لا يعرفون نفوس الرعية ولا يبلون ذوقها ولا يقدرون حاجتها . ولكنى كنت أنهاك صباح اليوم عن فلسفة فى بعد الطبيعة ، وها أنا ذى أخوض بك مساء

اليوم فى فلسفة الحكم وتدبير أمور الرعية كأنى حديثة عهد بقراءة أفلاطون وأرسطاطليس . فلنعد إلى ما كنا فيه يامولاى ، فإنى أريد أن أظهرك من قصرك على أشياء لم تكن تعرفها ولم تكن تقدر أنك ستعرفها » .

قال الملك وقد اشتدت حاجته إلى الاستطلاع : « فأظهرينى إذاً على ما تريدين أن تُظهرينى عليه » .

فقالت : « على رِسلك يامولاى فما ينبغى أن تجرى الأمور على ما تحب دائماً ، والعلم لا يُبْلَغُ إلا بعد الجهد فى طلبه واحتمال العناء فى تحصيله . وإنى مدخلتك فى هذه الغرفة وتاركة لك البحث فى أنحائها وأرجائها ما وجدت إلى البحث سبيلا . فإذا أعييت البحث وأضناك الجهد فإنى مشترطة عليك بعض الشروط لأريك مالم تكن تتصور أنك ستراه » . ثم دفعت باب الغرفة فيندفع . ونظر الملك فلم ينكر فى الغرفة شيئاً ولم ير فيها شيئاً خليقاً بالالتفات ، ولكنه مع ذلك جعل يجيل طرفه هنا وهناك ، ويطيل النظر إلى بعض ما فى الغرفة من أداة وأثاث يريد أن يخيّل إلى شهرزاد أنه يبحث ويستقصى ويجد فى البحث والاستقصاء . ثم يعترف لها بعد ذلك بأنه لم يصل إلى شىء ، وإنما كان فى هذا كله مخادعاً

يريد أن يتعجل العلم بما أعدَّت له شهرزاد من أسرارها المخبَّأة .

ولكن شهرزاد ضحكت للملك ضحكة فاترة لا تخلو من بعض الغيظ وقالت: «لست جادًّا يامولاى، وإنك لتعرف أنى لا أُخدع ولا يغرّر بى . وإنك لتعرف أنى لا أكره شيئاً كما أكره الكسل العقلى ، وهذا الطور الذى يحصل عليه المترفون من أطوار الحياة حين ينتظرون أن يقدم إليهم الهين واليسير مما يريدون لا يتكلفون فيه جهداً ولا يحتملون فيه عناء . فقد أنبأتك يا مولاى بأنى سأقوم منك الآن مقام الساحرة الماهرة التى ستُظهرك على الأعاجيب ؛ فلا تتعجل هذه الأعاجيب ، ولكن خذها بحقها، وابلغها من طريقها ، واحتمل فى سبيلها ماينبغى أن تحتمل من جهد . فإن لم تفعل خرجنا من هذه الغرفة كما دخلناها ، وانصرفت بك إلى غير ذلك من فنون اللهو والمتاع . فما أكثر ما فى القصر من فنون اللهو والمتاع ! » .

قالت ذلك ثم ضربت إحدى يديها بالأخرى فاقبلت الوصائف مسرعات يستبقن ، كأن وجوههن فلق الصبح ، وكأنهن لخفتهن ورشاقتهن لا يسعين على الأرض ، وإنما يسعين فى الهواء . فلما رآهن الملك مقبلات سيء بهن وضاق بهن ذرعاً ، وكاد بعض ذلك يظهر فى وجهه لولا فضل من حياء فرضه عليه أدب الملوك . فقد

كان فى جمالهن البارع وحسنهن الرائع منظر أنيق للعين وفتنة خلابة للنفس ، ولكن محضرهن كان خليقاً أن يصرف الملك عن شهرزاد أو يصرف عن الملك شهرزاد ، وكان أبغض شىء إلى الملك وأشقه على نفسه أن ينصرف عن فتنته أو أن تنصرف عنه فتنته . فلما رأى الوصائف مقبلات لم يرتح لمَقْدَمِهن ، ولكنه أمسك نفسه على ما لا تحب وانتظر حائراً أو كالحائر .

على أن انتظاره لم يطل؛ فقد أقبلت إليه رئيسة الوصاف فحيَّت وقالت فى صوت عذب : « أيأذن مولاى فى أن يبدأ الحفل ؟ » .

قال الملك دهشاً متجاهلاً مع ذلك : « أىّ حفل يا ابنتى ؟ ! »

قالت الوصيفة : « كنت أظن أن مولاتنا قد آذنت الملك بما هيَّأت له » .

قالت شهرزاد فى شىء من الغضب : « فإنى لم أوذن الملك بشىء ومضين مما أمرتن به » .

منذ هذه اللحظة نقل الملك من حياة إلى حياة : ومن عالم إلى عالم ، لم يدر كيف كان ذلك ولم يستطع فى استقبال من أيامه أن يصور لنفسه أو لغيره كيف كان هذا الانتقال ، وإنما ذكر إلى آخر أيامه أن صوت شهرزاد لم يكد ينقطع بهذه الجملة المغضبة

حتى شاع فى الغرفة جو غريب قِوامه أنغام موسيقية عذبة نفّاذة إلى أعماق الضمائر أخّاذة بمجامع القلوب .

وقد حاول الملك أول الأمر أن يتعرّف مصدر هذه الأنغام ، فنظر إلى الوصائف فإذا هن قائمات فى أماكنهن لا يأتين حركة ولا يحدثن حسًّا ، وليس فى أيديهن أداة موسيقية أو ما يشبه الأداة الموسيقية من قريب أو بعيد ، ونظر إلى شهرزاد فإذا هى قائمة فى مكانها وعلى وجهها ابتسامتها الغامضة التى لا تقول شيئاً والتى تقول كل شىء والتى لا تخلو مع ذلك من سخرية تُحفِظ وتهيج . وأدار الملك بصره فى الغرفة ينظر فى كل مكان يريد أن يتبين هذه الأنغام الساحرة مصدراً فلا يرى شيئاً ، وإنما يخيّل إليه أن هذا الجو الموسيقى الذى أحاط به وأحاط بمن حوله أشبه شىء بالجو الذى يعيش فيه أثناء أوقاته العادية لا يعرف أين يبتدىء ولا أين ينتهى .

وكان أغرب ما فى هذا الجو الموسيقى الرائع اختلاف أنغامه وائتلافها فى وقت واحد ، بل اختلاف الأصوات التى كانت تحمل هذه الأنغام وائتلافها . فكان هذا كله يلقى فى رُوع الملك أن هناك أدوات موسيقية مختلفة لا تحصى تصدر عنها أصوات وأنغام

متباينة ، ولكن قوة بارعة ساحرة قد أشرفت عليها ودبَّرت ما بينها من اختلاف حتى أحالته إلى ائتلاف .

ولم يمض على إحساس الملك هذا الجو من حوله وقت طويل حتى أحس الملك أنه يغرَق فى هذا الجو وينسى نفسه قليلا قليلا ، كأنما كانت الحياة الشاعرة تنساب من نفسه ومن جسمه شيئاً فشيئاً ، وإذا هو تَفْنَى فى هذا الجو المحيط به فيصبح صوتاً من أصواته أو نغمة من أنغامه ، أو يصبح جزءاً شائعاً فى كل صوت من هذه الأصوات ، وحظًّا مفرَّقاً فى كل نغمة من هذه الأنغام . وقد نسى كيف ابتدأ هذا الجو ، ولم يسأل نفسه كيف ينتهى ، وإنما استسلم لهذا البحر الموسيقى الذى غمره كما يستسلم الغرق بعد أن يبذل آخر جهده فى المقاومة ، وبقى له مع ذلك شعور واحد هو أنه فى حضرة شهرزاد وأنها تنظر إليه ساخرة منه راثية له ، وتبسم له ابتسامتها الغامضة كأنها تقول له : « ألم أنبئك أنى سأظهرك من الأمر على ما لم تكن تقدِّر أنك ستظهر عليه ، وأنى سأطلعك فى قصرك على ما لم تكن تظن أن قصرك يحتويه . وأنى سأسحرك وأبهرك وأضطرك إلى هـذا الاستسلام الذى انتهيت إليه ، ومع ذلك فقد كنت تخيل إلى نفسك أنك بدأت تعرفنى ! فذق

الآن هذه المعرفة ، وتبين أنك لم تجهلنى قط كما تجهلنى الآن » .

وينظر الملك إلى شهرزاد واجماً مبهوتاً ، ويريد أن يتكلم فلا يطاوعه لسانه ، ويريد أن يتقدم فلا تطاوعه قدماه ؛ ولكن شهرزاد تسعى إليه هادئة كأنها الحياة تسعى إلى الجسم الهامد ، أو كأنها اليقظة تسعى إلى النائم المغرق فى النوم ، حتى إذا بلغته وضعت يدها على كتفه وقالت له فى صوت لم يستطع أن يفرق بينه وبين هذا الجو الموسيقى المحيط به وإنما خيّل إليه ان الغرفة كلها تكلمه بهذا الصوت . قالت له : « لا ترَعْ يامولاى فليس عليك من بأس » . ثم أخذت ذراعه ومضت به إلى مجلس من مجالس الغرفة فأجلسته رفيقة به وجلست إلى جانبه عطوفاً عليه ، وقالت له فى صوتها هذا الجديد الغريب : « ألم أنبىء مولاى بأنى سأذيقه من نعيم الحياة ألواناً لم يذقها قط بل لم يذقها إنسان قبله قط ؟ أفيرى مولاى أنى قد وفيت بالوعد أو بدأت بالوفاء ! » .

قال الملك فى صوته الخافت الذى كان كأنما يأتى من بعيد « ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين ؟ ! » .

قالت متهالكة : « ألا يشغلك ما تسمع عن هذه الفكرة

الملحة عليك المضنية لك ! أليس خيراً من ذلك أن تسأل عن هذه الموسيقى من أين تأتى و إلى أين تمضى ! » .

قال : « فإنها تأتى منك و إليك تعود » .

قالت : « فإذا لم يستطع سمعك أن يشغلك عنى وعما أريد ، فستشغلك عيناك يا مولاى . أنظر ! »

ونظر الملك من حوله فرأى عجباً . لقد كان يعلم أن شهرزاد قد أقبلت به منذ حين على غرفة من غرفات القصر لها جدران تحدها وباب يغلق من دونها ، ومن هذا الباب قد دخلت الوصائف آنفاً ، ومن هـذه الجدران قد نبعت أنغام موسيقى كما ينساب الماء من العيون الجارية . ولكنه الآن ينظر فلا يرى جدران الغرفة ، و ينظر فلا يرى للغرفة سقفاً ولا باباً ، وإنما يرى نفسه فى مكان متباعد الأرجاء مترامى الأطراف ، قد زين أحسن زينة وأروعه وأعظمه أناقة ورشاقة : وقد تقدم هذا المكان فى بحيرة تحيط به من جهاته الثلاث واتصل بالقصر من جهته الرابعة ، فكأنه يد قد مدها القصر فى هـذه البحيرة تتخذ منها شيئاً . وهذا المكان الواسع الرائع يغمره الجو موسيقى ذاته كما كان يغمر تلك الغرفة الضيقة الساذجة . ولكن شيئاً آخر قد ظهر فى هذا

المكان ، فهؤلاء أزواج من الفتيات والفتيان قد حسنت وجوههم واعتدلت قدودهم وغمرهم بشر عجيب وهم فرحون مرحون ، يعبثون هنا ويجدّون هناك ويتراقصون فى هذه الناحية ويسمرون فى تلك الناحية ، والملك مسحور مبهور يرى كل شىء ولا يحقق فى نفسه مما يرى شيئاً . وشهرزاد تقول له فى صوتها الهادىء الذى يقع فى نفسه كأنه قطعة من هذا الجو الفرح المرح : لا بأس عليك يا مولاى ! فإنك ترى هؤلاء الأزواج من الفتيان والفتيات وتسمع لأصواتهم الجادة والعابثة ، ولكنهم لا يرونك ولا يسمعون لنا حين نتحدث ، لأنهم لم يخلقوا بعد ولكنهم سيخلقون فى يوم من الأيام . ألم أحدثك بأنى ساحرة ! فقد قصصت عليك العجب من أنباء الماضى ، فأنا أقص عليك العجب من أنباء المستقبل . ولكنك يا مولاى لا تؤمن بالقصص وإنما تتلهى به كما يتلهى به عامة الناس . ولو قد آمنت بالقصص كما تؤمن به شهرزاد لما رأيت فيما تشهد الآن سحراً ولا فتنة ، ولرأيت فى هذا العالم الذى يبتدعه القصص ملجأ تأوى إليه ووزراً تعتصم به إذا ضاقت نفسك بهذه الحياة الراكدة التى يحييها الناس حين ينامون وحين يستيقظون وحين يضطربون

فى أمورهم اليومية . هلمّ يا مولاى فقد بدأنا رحلة لم نتقدم فيها إلا قليلاً » .

ثم تنهض متثاقلة ، وتنهض الملك متلطفة وتمضى به أمامها وقتاً لا يدرى الملك أطال أم قصر ، ولكنها قد انتهت به إلى حافة البحيرة فوقفت وأشارت بيدها فى الفضاء أمامها وقالت للملك : « أنظر يا مولاى ! ألا يشوقك أن تستمتع بما يستمتع به هؤلاء من النعيم ! » .

وينظر الملك فيرى أسراباً لا تحصى من الزوارق قد ملأت البحيرة مختلفة ألوانها مزدانة أجمل زينة وأروعها يغمرها الضوء فكأنها تسبح فيه كما تسبح فى الماء ، تصدر عن بعضها الموسيقى ، ويصدر عن بعضها الغناء . وكلها صور الفتنة والسحر والجمال .

ويهمّ الملك أن يقول شيئاً ، ولكن شهرزاد تضمه إليها رفيقة به وتقول له فى صوت فاتر ساحر : « لا تقل شيئاً يا مولاى ! فقد خلصت نفسك لى كما خلصت نفسى لك منذ الليلة . انظر إلى هذا الزورق يا مولاى ! إنه يدعونا فلنجب دعوته . إنك لن تستجيب له حتى تنحسر عنك أيامك المثقلة بالهموم والأحزان والتجارب . وإنى لن أستجيب له حتى أعود كما كنت قبل أن

أتحدّاك وأتحدّى عندك الملك والموت والحب جميعاً . هلمّ يا مولاى لنعد إلى شبابنا القديم النقى الذى لا يدنّسه إثم ولا تشوبه فتنة ولا تثقله تجربة ، وإنما هو ناصع كضوء الشمس ، رقيق كضوء القمر حلو كابتسامة العذراء » .

ويرى الملك نفسه مع شهرزاد فى زورق من هذه الزوارق الرائعة التى تسبح فى الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعاً . ولكن ماذا ؟ هذه يد تمسّ كتف الملك ، وهذا الملك يثوب إلى نفسه فجاءة وإذا هو نائم فى مكانه من زورقه ذاك قد غلبه النوم على شعوره المستمتع بما كان يجد من لذة ونعيم . ثم ردته اليقظة لا إلى شعوره ذاك ، ولكن إلى صوت يعرفه لأنه سمعه قبل ذلك ، وإذا هذا الصوت يقول : « فلما كانت الليلة الثانية عشرة بعد الألف قالت شهرزاد . »

ثم ينقطع الصوت ويمد الملك عينه ويمد سمعه فيرى شهرزاد مغرقة فى نوم هادىء ، ويسمعها تقول فى صوتها الرائع الحلو : « بلغنى أيها الملك السعيد أن فاتنة قالت لأبيها : « ذلك سرّى الذى ستفهمه حين أزيل عنه الستار . . . »

٥

وملوك الجن يا مولاى لا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه ملوك الناس حين يكتب بعضهم إلى بعض من قطع الآماد البعيدة فى الأوقات الطويلة ليظهر بعضهم على رسائل بعض . ولكن لهم فنوناً من الحيلة يقطعون بها أبعد الآماد فى أقصر الأوقات ، يكون أحدهم فى أقصى الشرق فيبلّغ ما يريد لصاحبه فى أقصى الغرب قبل أن يرتدّ إليه طرفه ، لا تعوقه مسافة ولا تصده أمواج البحر ولا عقاب البر ولا عواصف الجو ، كأن لهم أرواحاً تسعى بينهم بالرسائل : فكلهم بعيد من صاحبه إلى أقصى غايات البعد ، وكلهم قريب من صاحبه إلى أدنى آماد القرب .

وما أكثر ما يأخذ الناس عن الجن ! ولكن ذلك لا يتأتّى لهم إلا بعد الجهد والمشقة ، وحين يخطر لروح من أرواح الجن أن يتألّف فرداً من أفراد الناس . ومن يدرى يا مولاى ! لعل الناس فى مستقبل من الأيام أن يتعلموا من الجن وسائلهم هذه فى استخدام الأرواح يتواصلون بها على بعد الشقة وتنائى الآماد .

ومهما يكن من شىء يا مولاى فقد أقبل وزير ملك

طهمان بن زهمان قبل أن يفرغ الملك من حديثه إلى ابنته وَجِلاً يخفي وجله في كثير من الجهد ومذعوراً يُسِرّ ذعره في كثير من العناء .

فلما مثَل بين يدي الملك والأميرة قال في صوت متهدّج مضطرب : « لقد أبلغت تحدّي مولاتنا إلى ملوك الجن جميعاً في البر والبحر والجو ؛ فكلهم قبل التحدى ، وكلهم أنذرنا بحرب تبدأ الآن ، ولكنها لن تنتهى فيما يقولون إلا حين تستأثر مولاتنا للمنتصر » ، ثم وقف واجماً ذاهلا لا يكاد يعقل شيئاً ، بل لا يكاد يأتى حركة .

فنظرت إليه الأميرة باسمة ساخرة وقالت في صوت المتضاحكة : « ثم ماذا أيها الوزير ؟ » .

قال مضطربا متلعثما : « ثم إني أقبلت يا مولاتي أرفع الأمر إلى مولانا وإليك وأتلقى أمركما » .

قالت : « فأى أمر تريد أن تتلقى ؟ » .

فوجم الوزير ، ونظر أمامه والتفت عن يمين وشمال ، كأنه يلتمس من يلهمه الرد على الأميرة . فلما لم ير أحداً قال في صوته المتهدج : « فهل يأذن مولانا في أن نجمع مجلس الحرب ؟ »

قال الملك : « هو ذاك » .

قالت الأميرة : « وما عسى أن يصنع مجلس الحرب ؟ » .

قال الملك : « يصنع يا ابنتى ما تصنع مجالس الحرب فى مثل الحال التى اضطررنا إليها . فهناك أوامر يجب أن تُصْدَر ، وجنود يجب أن تُعَبَّأ ، وأمور يجب أن تُهَيَّأ » .

قالت فاتنة : « فأرح نفسك يا أبت من مجالس الحرب فلسنا فى حاجة إليه . ان تُصْدَرَ الأوامر ولن تعبَّأ الجنود ولن يهيأ لهذه الحرب شىء . اذهب أيها الوزير فأذِّن فى الجن ألا يراعوا : فليس عليهم من بأس ، وإن هذه الحرب التى بدأت منذ الآن ستنتهى دون أن يصيبهم منها مكروه ، بل أنا أرجو أن يصيبهم منها خير كثير » .

هنالك وثب الملك وقد ثاب إليه حزمه وعزمه وعاد إليه حَدّه وجِدّه ، كأنما هبّ من نوم عميق طويل وستقبل يقظة حافلة بجلائل الأعمال وعظائم الخطوب ، فقال : « اعبّئى يا ابنتى ما شئت أن تعبئى ، وجرّبى ما أحببت أن تجربى ، وتهيئى لهذه الحرب الغريبة التى دفعتنا إليها كما تريدين : ولكن دعينا نُعِدّ للحرب عُدّتها ونستقبلها كما تعودنا استقبالها : فإن تنجح

وسائلك لم يكن فى استعدادنا شر ولا فى احتياطنا ضرر ، وإن تخفق تجاربك لا نؤخذ الرعية والمملكة من تقصير الساسة وإهمال القادة » . ثم التفت إلى وزيره قائلا : « أدع لنا مجلس الحرب ، وما أرى إلا أنك قد فعلت » .

قال الوزير : « فإن قادة الجنـد وساسة الملك بباب مولانا ينتظرون أن يؤذن لهم فى الدخول » .

قال الملك : « فأدخلهم إذاً » .

وأقبل القواد والحكام والمشيرون ، فحيّا كل منهم وأخذ مجلسه حيث ينبغى له أن يجلس ، ثم أخذوا يتدبرون ويفكرون ويتشاورون، ولم تكن عنايتهم بحماية الأمن الخارجى أشد من عنايتهم بحماية الأمن الداخلى . فقد تسامع أفراد الرعية وجماعاتها بهـذه الحرب فى أقل من طرفة عين ؛ فبعضهم أشفق منها فأخذ يحتاط للمستقبل ، وبعضهم أدركه الذعر فأخرجه عن صوابه وتجاوز به القصد فيما ينبغى أن يعمل أو يقال ، وبعضهم انتهز فرصة كان ينتظرها فإذا هو يكيد ويمكر ويتربص الدوائر بالدولة القائمـة أو بالحـكومة العاملة لهذه الدولة ، وبعضهم كان أقرب من هذا همة وأقصر نظراً وأشد إيثاراً لنفسه بالخير وأحرص على تحقيق منافعه

العاجلة فأخذ يقامر ويغامر ويجمع المال ويكنز الذهب والفضة ويدّخر المؤن غير حافل بما سيكون لذلك من أثر فى حياة من حوله من الأفراد والجماعات ، وإنما ركب شهوته واتبع هواه لم يفكر إلا فى إرضاء مطامعه وتحقيق منافعه . ولم يكن بدٌّ من الاحتياط لهذا كله والضرب على أيدى هؤلاء جميعاً . ولم يكن بدٌّ من أن يأمن الخائف ، ويطمئن المذعور ، ويحمى من لا حامى له إلا النظام والقانون . ولم يكن بدٌّ لتحقيق هذا كله من أن تصدر الأوامر وتتخذ الأهبة . ولكن ملوك الجن يا مولاى ليسوا كملوك الناس لا يتعرّضون للإهمال ولا يوصمون بالتقصير ولا ينتظرون أن تلم بهم الكوارث وتفجئهم الحوادث ، ولكنهم يستعدون لكل حادثة ، ويتأهبون لكل كارثة ، ويسبقون الخطوب بالاستعداد لدرئها ، تنفذ بصائرهم إلى ما وراء الحاضر كما تنفذ أبصارهم إلى ما وراء الجو الذى يعيشون فيه . وهم من أجل ذلك لا تدهمهم داهمة ، ولا تلم بهم ملمة إلا استخرجوا قوانين قد هيّئت ، وأوامر قد أعدّت وكلّفوا تنفيذ القوانين وإجراء الأوامر جماعات من أعوانهم قد أعدّوا لهذا كله من قبل ، ولم يعرف أحد منهم أعدّوا له أو كلّفوا القيام عليه .

ومن يدرى يامولاى ! لعل ملوك الناس يعرفون من هذا بعض ما يجهلون و يتهيّئون منه لمثل ما يتهيأ له ملوك الجن ، فلا تؤخذ دولهم على غِرّة ولا تفجؤها الحوادث على غير تهيُّؤ ولا استعداد .

ومن أجل هذا كله يامولاى لم يحتج طهمان بن زهمان ووزراؤه وأعوانه إلى وقت طويل ليحزموا أمرهم و يفرغوا من تدبير الأمن الداخلى ، و إنما مروا بذلك مرًّا سريعاً ، واستقامت لهم أمورهم فى ذلك على خير ما أحبوا .

وكانت فاتنة تسمع وترى وتبتسم غير حافلة بما تسمع ولا آبهة لما ترى ، ولكنها مع ذلك كانت تجد شيئاً من الرضا والغبطة : لأنها كانت ترى أباها حازماً عازماً يدبر الأمر وينفذ القضاء كعهده حين كان قويًّا جَلْداً نفّاذاً غير متهالك ولا مستيئس .

فلما فرغ القوم من تدبير أمور الرعية ، أخذوا يعرضون أمور الحرب و يهيئون لاستقبال العدو المغير . ولم يكن الأمر هيناً ولا ميسوراً ؛ فهم قد كانوا تعودوا أن يحاربوا هذا الملك أو ذاك من ملوك الجن ، ولم يكونوا ينتظرون أن يحاربوا ملوك الجن جميعاً . وهم كانوا قد ألفوا أن يستعدوا للشر يأتيهم من الجو أو يأتيهم من البر أو يخرج لهم من البحر أو ينجم لهم من الأرض ، ولكنهم

لم يألفوا أن يأتيهم الشر من هذه الوجوه كلها فى وقت واحد ؛ فلم يكن أمرهم سهلا ولا تشاورهم رفيقاً .

وكانت فاتنة مع ذلك تنظر إليهم وتسمع منهم غير حافلة ولا مكترثة . على أن شيئاً من الرثاء بلغ نفسها القاسية آخر الأمر فقالت لأبيها :

ارفق بنفسك وبهؤلاء القادة والساسة يا أبت ، فلستم فى حاجة إلى كل هذه الخطَط التى تدَبّرونها وتقدّرونها وتديرون فيها الحوار . إن مملكتنا معرّضة لشر لا قبل لها به ، فإما أن تنجح خُطّتى التى رسمتها والتى لا تعلمون منها شيئاً ، وإما أن نهلك جميعاً دون أن يبقى منا باقية » .

قال الملك وعلى ثغره ابتسامة مرة خير منها العبوس : « هو ذاك يا ابنتى ؛ فإنك لا تنبئيننى بشىء أجهله . ولكنى لا أحب أن أوخذ على غِرّة أو أن أُوتَى من تقصير . فلأجهدنّ ما استطعت إلى الجهاد سبيلا ، ولأُعْذِرَنّ ما وجدت إلى الإعذار طريقاً ، وليجر القضاء بعد ذلك بما شاء ! » .

وما كاد الملك يفرغ من كلامه هذا حتى تغير من حوله كل شىء ، فإذا الأرض تميد ، وإذا الجو مكفهر ، وإذا ظلمة قاتمة فحمة

تريد أن تأخذ المدينة من جميع أقطارها ، وإذا سحب متراكمة متراكبة تظهر فى السماء مرسلة فى الجو بروقاً خاطفة ورعوداً قاصفة ، وإذا الوزراء والساسة يذهلون عما حولهم وعمن حولهم ، وإذا القادة ينصرفون كلٌّ إلى موضعه من قيادة الجيش ، لعله يعمل عملاً أو يُبْلِي بلاء . والملك ثابت مكانه لا يريم ، ناظر أمامه لا يحوّل طرفه إلى يمين أو شمال ، وقد جمدت على ثغره ابتسامة كانت حائرة فاستقرت فى مكانها كأن نفس الملك لم تجد قوة ولا وقتاً للتفكير أو التقدير فضلاً عن الابتسام أو العبوس .

وفاتنة قائمة باسمة كأن شيئاً لم يتغير من حولها ، وكأن حدثاً لم يحدث ، وإنما هى قائمة كعهدها آنفاً حين كانت تنظر إلى مجلس الحرب فى كثير من السخرية وفى كثير من الرثاء ، وحين كانت تنظر إلى أبيها فى كثير من الرحمة والحب وفى كثير من الإكبار والإجلال .

على أن صوتاً هائلاً يملأ ما بين الأرض والسماء فجأة ، فتهتز له جنبات القصر ، ويثب له الملك ومن معه من أصحابه كأنما دفعتهم اللوالب فى الفضاء ، وإذا هم يسرعون إلى الأطناف يشرفون منها لايدرون كيف أسرعوا ، ولا كيف دفعوا ، وإنما يرون أنفسهم

مشرفين ينظرون وكأنهم لا يرون ، و يُصْغُون وكأنهم لا يسمعون لكثرة هذه الجماهير التى أقبلت إلى القصر فزعة جزعة تجأر بالاستغاثة وتمعن فى الضراعة ، وقد استيقنت مخطئةً أومصيبة ، أنها ستجد عند الملك أمناً من هذا الخوف ، ووَزَراً من هذا الفزع .

والملك قائم مكانه ينظر و يُصغى ، ولا يزيد على النظر والإصغاء . وماذا يستطيع الملك أن يفعل وقد زُلزلت الأرض زلزالها ، ولبست السماء أبشع ثوب رآه سكان الأرض والجو . فالظلام يتكاثف ، والسحاب يتراكم و يتدافع ، والبرق يغمر المدينة بضوء مخيف لا يكاد ينصب عليها حتى ينقشع عنها ، والرعد ينجوب فى الجو بأصوات متهدّجة كأنها أصوات الجبال تصطدم ، والبحر من بعيد هائج مائج تصطخب أمواجه اصطخاباً لا عهد لأحد به ، وترتفع إلى السحاب فتتصل به لا يُدْرَى أبلغته لأنها ارتفعت حتى انتهت إليه ، أم بلغها لأنه انخفض حتى انتهى إليها : أم صعدت هى فى السماء ما وسعها الصعود وهبط هو إلى الماء ما وسعه الهبوط حتى التقت السماء والماء شر لقاء .

وفاتنة قائمة باسمة لا تقول شيئاً . ولا تأتى حركة ، ولا يظهر على وجهها الروع أو ما يصور الروع من قريب أو بعيد . على أنها

تسعى رفيقة رشيقة محتفظة بابتسامتها الحلوة حتى تبلغ أباها الملك، فتمس كتفه فى خفة وسرعة ، وتقول له فى صوت هامس عذب : « منظر رائع يا أبت ! . . »

ويهمّ الملك أن يقول شيئاً ولكنه يُرَدُّ عن القول؛ فهذه المناظر الرائعة المروعة الهائلة ثابتة لا تتحوّل مرسلة للروع والروعة جميعاً دون أن يصيب المدينة منها شر أو ينال أهل المدينة منها مكروه . هذا البحر قد بلغ من الهياج أقصاه وانتهى من الثورة إلى غايتها، حتى لا يشك من يراه أنه متجاوز حدوده فغامر ما وراءها لا يدع شيئاً أتى عليه إلا ازدرده ازدراداً وعفّى على آثاره تعفية كأن لم يَغْنَ بالأمس ، وهو على ذلك واقف عند حدوده لا يتجاوزها بل لا يكاد يبلغها ، كأن سدوداً خفية قامت بينه وبين هذه الحدود تردّه عنها وتمنعه أن يبلغها فضلا عن أن يجوزها . وهو يثور ويمور ويهيج ويموج ويرسل فى الفضاء أصواتاً منكرة كأنما تمزق عنها أمواجه تمزقا ، ولكنه على ذلك لا يبلغ شيئاً ، ولا يستطيع أن يمس الأرض بأذى .

وهذه قطع السحب تزدحم وتصطدم ، وتحدث ما تحدث من بروق ورعود ، وترسل ما ترسل من الصواعق المهلكة ، ولكنها

على ذلك لا تصيب أحداً بما يحب ولا تصيب أحداً بما يكره ، وإنما هي تأتي ما تأتي من الأمر وتحدث ما تحدث من الهول كأنها تلعب فيما بينها تريد أن تُظهر أهل الأرض على فنون من اللعب ليس لهم بها عهد من قبل .

وهذه الرياح تتناوح ، منها ما يقبـل ومنها ما يدبر ، منها ما يُيامن ومنها ما يشائم ، ولها أحياناً هفيف كهفيف الأغصان ، وأحياناً أخرى فحيح كفحيح الحيّات ، وأحيانا أخرى صـفير نحيف ، وأحياناً أخرى زئير مزعج ، ولـكنها على ذلك لا تصنع شيئاً ولا تؤذى أحداً .

وهذه قطع من الجبال مختلفة ألوانها متباينة حجومها . قد أقبلت من بعيد ، كأنما قذفتها المجانيق تريد أن تدمر بها المدينة تدميراً ، وهي تمضي في الفضاء مسرعة على ضخامتها كأنها السهام الرقاق حتى لا يشك من يراها في أنها تحمل الموت والدمار ، وفي أن قطعة منها يكفي أن تهوى إلى الأرض فتسحقها سحقاً . وتمحق ما عليها ومن عليها محقاً ، ولـكنها على ذلك لا تـكاد تدنو من المدينة حتى تجمُد في مكانها من الجو كأنها قد شُدّت إلى السماء بأمراس الـكَتّان كما يقول الشاعر القديم ، فهي لا تقبل ولا تُدبر

ولا ترتفع ولا تنخفض، وإنما تظل معلقة مكانها كأن كل قطعة منها ظلة هائلة قد عُلِّقت فى الجو لترد عن أهل الأرض حر الشمس .

وهذه الأرض تنشق عما أضمرت وتتفجر فيها ينابيع من اللهب هنا ومن الماء هناك ، وترتفع هذه الينابيع المحرقة وتلك الينابيع السائلة فى السماء إلى حيث لا يستطيع البصر أن يتابعها فى الارتفاع ، وإنما يرتد عنها خاسئاً وهو حسير ؛ ولكنها على ذلك لا تحرق شيئاً ولا تغرق شيئاً ؛ وإنما تمضى وتمضى فى ارتفاعها ، وتمضى وتمضى فى اتساعها ، ثم تتضاءل قليلا قليلا ، وإذا هى تهبط ثم تهبط ، وتضيق ثم تضيق حتى تعود هزيلة نحيلة إلى فوهتها التى خرجت منها ، ثم تنضم عليها الأرض كأن لم تكن شيئاً لتنشق عن مثلها فى مكان آخر .

وعلى هذا النحو يضطرب الجو والبر والبحر أروع اضطراب وأشده هولاً دون أن يحدث عن ذلك ما يؤذى أو يسوء .

وهذه جماعات الرعية من الجن كان يملؤها الروع منذ حين فجعلت تملؤها الروعة الآن . كانت تجأر بالاستغاثة والضراعة آنفاً ، فهى تجأر بالرضا والإعجاب والافتتان الآن .

وهذا الملك ينظر إلى ابنته نظرات إن صوّرت شيئاً فإنما تصور ذهول الحائر الواجم الذى عجزت نفسه عن التفكير وانعقد لسانه عن القول ؛ فهو قائم مبهوت فى مكانه ومن حوله وزراؤه فى مثل حاله كأنهم التماثيل .

وهؤلاء قادة الجيش قد أقبلوا لا يدرون أيرضون أم يسخطون ، فهم يرون ما يرون من الهول ويحسون أنهم لا يلقون منه كيدا ، وفيهم مع ذلك حماسة الجند المستبسلين ؛ فكلهم كان يود لو يُبلى بلاء ويسجِّل لنفسه بالانتصار أو الموت فخراً يتحدث به أعقابه بعد آلاف السنين . ولكنهم مع ذلك قد وجدوا أنفسهم وجنودهم عاجزين كل العجز عن أن يُقْدِموا حين كان يجب الإقدام ؛ يريدون أن يتقدموا إلى أمام فلا يجدون إلى ذلك سبيلا كأنهم قد ثُبِّتوا فى الأرض تثبيتاً ، فإذا أرادوا أن يتراجعوا إلى وراء وجدوا ذلك هيناً ميسوراً .

وهم قد أقبلوا حائرين ثائرين يقولون بصوت واحد ولسان واحد : « هذا هو السحر أيها الملك ! هذا هو السحر الذى لم يعرفه قبل اليوم أحد من الجن ولم يعرفه قبل اليوم أحد من الناس » .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

وهمّ شهريار أن يفكر فيما سمع من هذا القصص الغريب ، ولكنه لم يصل إلى ما أراد من ذلك ؛ فقد أحس نفسه ثقيلة عليه لا يستطيع تحريكها إلى التفكير ، وأحس جسمه ثقيلا عليه لا يستطيع دفعه إلى النشاط ، وأحس كأن نفسه قد ثُبِّتت فى مكان بعينه لا تستطيع أن تجوزه ، وكأن جسمه قد ثُبِّت فى مضجعه فهو لا يستطيع أن يأتى فيه حَراكا . وأحس مع ذلك زورقه ذاك يضطرب به اضطرابا حقيقياً هيناً على الماء كأنه أرجوحة الطفل تضطرب به اضطراباً خفيفاً لتدفعه إلى النوم . وأحس مع هذا كله ذلك الجو الموسيقى الغريب هادئاً حلوا رفيقاً يدنو منه هوناً ما ، و ينأى عنه هوناً ما ، كأنه النسيم الهادىء يداعب صفحة البحيرة فى تأنق وترفق وظَرْف . ثم ينأى الملك من نفسه أو تنأى عن الملك نفسه ، و يخيَّل إليه على هذا كله كأنه يرى فيما يرى النائم أنه فى زورق جميل خفيف يسبح به و بشهرزاد النائمة منه غير بعيد فى الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعاً .

٦

على أن غناء عذباً يبلغ سمعه كأنه ترتيل الملائكة — لو أن للناس أن يسمعوا ترتيل الملائكة — فلا يكاد يَمَسّ سمعه حتى ينتهى إلى نفسه الشاعرة فيوقظها فى أناة ويستلها من النوم فى لطف ، كما كان أبو نُوَاس يستلّ من الدنّ روحه فى لطف ، وإذا الملك يفيق من نومه ، ولكنه يمسك نفسه فى هذا السكون الذى كان فيه قبل أن يخرج من النوم كأنه كان يريد أن يستبقى حلاوة هذا الغناء .

وكان يظن ، كما يظن الحالم حين يستيقظ ، أنه يغالط نفسه ويغالط النوم ، وأن اليقظة ذاهبة بلذة أحلامه لا محالة ، ولكنه مع ذلك يسمع هذا الغناء العذب ويحس موقعه من قلبه ويتبين الأصوات التى تحمله والألفاظ التى تحويه . وكأن هذه الأصوات كانت تصدر عن هذه الأمواج الصغيرة التى كانت تصطفق من حوله وتداعب زورقه هذا الغريب ، وكأن هذه الأمواج كانت تدعوه بصوتها ذلك العذب قائلة فى لغة فارسية رقيقة حلوة : « أفق أيها الإنسان السعيد لتستمتع باليقظة كما استمتعت بالنوم ،

ولتنعم بالشعور كما نعمت باللاشعور . أفق أيها الإنسان السعيد فما أقلّ الذين تُتاح لهم السعادة فى حياتهم هذه القصيرة ! خذ حظك منها حريصاً عليه كلفاً به فإنك لا تدرى متى تفارقك أو متى تفارقها ؛ كما أنك لم تدر كيف لقيتها أو كيف لقيتك . أفق أيها الإنسان السعيد فإن أخص ما تمتاز به السعادة أن الذين ينعمون بها لا يدرون أأيقاظ هم أم نيام » .

ثم يبعد الصوت ويتضاءل الغناء ، ويتسمّع الملك فلا يسمع إلا اصطفاق الأمواج هدئاً ناعماً رفيقاً كأنه صوت الحرير يمس الحرير . ثم ينظر الملك فيرى شهرزاد فى سريرها غير بعيد وعلى وجهها ابتسامة حلوة وإشراق رائق وغبطة لا سبيل إلى وصفها ، وهى تمد إليه عينيها كما يمد إليها عينيه ، تريد أن تقول له صامتة ما كان يريد أن يقول لها صامتاً : ما أعذب هذا الصوت وما أجمل هذا الغناء ! ولكنها لا تقول شيئاً ، كما أنه هو لم يقل شيئاً ، وإنما تركت عينيها ممدودتين إليه كما ترك هو عينيه ممدودتين إليها .

ثم تمضى لحظات طوال أو قصار ، وإذا الملك يستوى جالساً فى نفس الوقت الذى تستوى فيه شهرَزاد جالسة ، وإذا الملك

ينهض قائماً فى نفس الوقت الذى تنهض فيه شهرزاد قائمة . و إذا الملك يسعى خطوات قصاراً كما تسعى شهرزاد خطوات قصاراً . و إذا العاشقان يلتقيان فيتعانقان فيغيبان فى قبلة عَرفا أوّلها ولم يعرفا آخرها ، ثم يفيقان ، و إذا الزورق ينساب بهما فى نهر ضيق هادئ كأن مياهه قد ثبِّتت فى مجراها ، وقد كسى شاطئاه عن يمين وشمال عشباً أخضر كثيفاً كأنه السندس . و ينظران فإذا جماعات من الفتيات ينحدرن مسرعات عن يمين وشمال إلى النهر يحيين بالزهر النضر والأغصان الخضر و يدعون العاشِقَيْنِ أن هَلُمّ فقد بلغتما جزيرة النعيم .

و يرسو الزورق فى مرسى قد هُيِّئَ له ، و يصعد منه العاشقان صامتين ، ولكن البهجة تغمر وجهيهما وتنطق عن قلبيهما بما لا تستطيع أن تنطق به الألسنة أو يصوره البيان المبين . وقل ما شئت والتمس عند القائلين ما أحببت من وصف الجنات الرائعة والرياض البارعة والحدائق الملتفة والغابات المتكاثفة والأزهار المنسقة والغدران المصفقة ، فلن تبلغ مهما يكن حظك من ذلك وصف هذه الجزيرة التى ارتقى إليها العاشقان حين صعدا من زورقهما ذاك صامتين لا يقولان شيئاً .

وكيف تريدنى على أن أصف لك ما لا يوصف ، أو أن أصوِّر لك ما لا سبيل إلى تصويره . لقد انعقد لسان شهريار لأنه أحس وعجز عن تصوير حسه ، وانعقد لسان شهرزاد لأنها شعرت وعجزت عن تصوير شعورها . ومع ذلك فما أكثر ما قال الملك بعينيه لشهرزاد ! وما أكثر ما قالت شهرزاد بعينيها للملك !.

ويخيَّل إلىّ أن لو أتيح لكاتب أن يترجم بعض ما كانت تقوله هذه الأعين لزعم أن شهرزاد كانت تقول الملك : أترى إلى هذا النعيم ! لقد وعدتك به ، وكنت أظن أنى سأكون أقدر منك على احتماله ، وأنى سأكون منك مكان الترجمان يدلك عليه ويمتِّعك به ويصف لك دقائقه ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أثبت لقوته ولا لرقته ولا لسحره ، فانتهيت إلى مثل ما انتهيت أنت إليه من العجز والاستسلام .

وكأن شهريار يقول لشهرزاد : نعم ! لقد قهر هذا النعيم قوتك الثائرة ونفسك الجامحة ، كما قهر قوتى المتهالكة ونفسى المستسلمة .. ولقد سوّى بيننا فى هذا الضعف الحلو وهذه الراحة الممتعة أو هذا المتاع المريح : لقد نزلك إلى حيث أنا ، ورفعنى إلى حيث أنت ، فأنا أراك الآن رأى العين ، وأنا أعرفك الآن حق المعرفة ، وأنا

لا أدرى بأى الأمرين أنا أسعد حظًّا : أبهذا النعيم الذى يغمرك ويغمرنى ، أم بهذه المعرفة التى جلت لى نفسك الغامضة وكشفت لى سرّك المكنون .

وكانت شهرزاد ترسل إلى الملك من عينيها وشفتيها ابتسامات ساحرة لم تخل من سخرية ، ولكنها كانت سخرية واضحة يملؤها الحب والحنان ، وليس لها حظ من قسوة أو مرارة . وكانت هذه السخرية تلقى فى رُوع الملك أنِ اسْتَمْتِعْ بهذا النعيم الذى يغمرك ويغمرنى ، واستمتع بهذا النعيم الذى تجده من جلاء نفسى الغامضة وانكشاف سرّى المكنون ، وخذ من هذين النعيمين أكثر ما تستطيع أن تأخذ ، فإنك لا تدرى متى ينحسران عنك ، كما أنك لا تدرى متى يُسِّرا لك ولا كيف يسِّرا لك . والشىء الذى ليس فيه شك هو أنك ستعود ملكا تدبر أمور الناس وتصرّفها كما تريد ، وأنك ستعود رعية تدبر أمورك شهرزاد وتصرّفها كما تحب . ولكن أرجو ألا يشق عليك تدبير الملك ، وألا يثقل عليك غموض شهرزاد .

وبعد وقت لا أدرى أطال أم قصر أحس الملك لسانه ينطلق وصوته يبلغ أذنيه ، وإذا هو يقول : « أين نحن ! وماذا

نرى ! وماذا نسمع ! ألا تنبئينني آخر الأمر من أنت ! وماذا تريدين . . ؟ ! »

قالت شهرزاد متضاحكة : « ماذا ! ألم تقل عيناك منذ حين إنك قد عرفتني حق معرفتي ، و إنك تنعم بهذه المعرفة ! فما سؤالك عما تعرف ! . أين نحن ! لقد سمعنا أننا فى جزيرة النعيم . ماذا نرى ! إنما نرى أشجاراً وأزهاراً ورياضاً وأنهاراً ، بذلك تسميها اللغة ، لأنها تشبه من قريب أو بعيـد ما تعوّدنا أن نرى فى مملكتك تلك التى تركتها أمس ، والتى لو أردنا أن نرجع إليها دون أن يعيننا قصص شهرزاد لما بلغناها قبل أن ينتهى ما قدِّر لنا من عمر . ماذا نسمع ! نسمع غناء تحمله إلينا أصوات هؤلاء الفتيات اللاتى نراهن ولا يريننا . أتعرف من هؤلاء الفتيات ؟ ! . . »

قال الملك : « ومن أين لى أن أعرفهن . . ؟ ! وهل عرفت شيئاً ، أو هل عرفت أحداً مما رأيت وممن رأيت منذ أمس ؟ ! » .

قالت شهرزاد : « قد عرفتهن . فأما هؤلاء الفتيات فإنى أعرِّفك بهن إن شئت . ولكن أمسِكْ عليك نفسَك وأمسك عليك راحتك وأمسك عليك ما يملأ قلبك من غبطة وبهجة

ونعيم . هؤلاء الفتيات هن اللاتى لم ترسلهن إلى الموت لأن شهرزاد شغلتك عنهن بما قصّت عليك من أنباء الماضى ، وبما تقص عليك الآن من أنباء المستقبل ، وستشغلك عنهن بما تعرف فيها وما تنكر منها من وضوح وغموض . فهن فرحات مرحات ، تراهن الآن يصوِّرن النعيم كل النعيم ، ومنهن الراضية كل الرضا ، ومنهن الساخطة كل السخط ، ومنهن المترددة بين ذلك ، ولكنهن على هـذا فرحات مرحات فيما ترى ؛ لأن حياتهن لم تقتضب فى غير إبانها ، ولأن شبابهن لم يُرَدّ عنهن ردًّا عنيفاً » .

وكانت هذه الألفاظ التى كانت شهرزاد تنطق بها متقطعة متفرقة تبلغ أذن الملك لاذعة ، وتنتهى إلى قلبه موجعة . ولم تتمها شهرزاد حتى كان الملك قد ثاب إلى نفسه واستجمع شعوره كله ، وأخذ يعرض ما رأى يقظاً ونائماً . ولكنه ينظر فيرى نفسه فى زورقه ذاك ، ويرى الزورق ينحدر به فى النهر متجهاً صوب البحيرة التى جاء منها ، وعن يمينه وشماله تلك الجماعات من الفتيات يحيين بالأزهار والغصون والغناء ، ولكن فى تحيتهن حزناً أشبه بهذا الحزن الذى تصوِّره تحية الوداع .

وينظر الملك إلى شهرزاد فيراها جالسة منه غير بعيد مُعْرِضة

عنه وعن الزورق وعن شاطئي النهر الجميلين وعن جماعات الفتيات وما يحيين به من أزهار وغصون وغناء ، وقد أطرقت تنظر فى كتاب .

قال الملك دهشا : « تقرئين! ياعجبا ! أنى لك هذا الكتاب؟! » .

قالت شهرزاد فى لهجة التى لا تكترث بما تسمع ولا تهتم لما تقول : « يا عجبا ! أنى لنا هذا الزورق وأنَّى لنا هذا النهر الذى ننحدر فيه ، وأنى لنا هذه البحيرة التى نقبل عليها ! انظر أيها الملك السعيد » . . . قالت ذلك وأشارت أمامها بيدها . ونظر الملك فلم تبتهج نفسه لما رأى ، وإن امتلأت إعجابا به وعجب له .

فقد رأى النهر يتسع من ضيق ، وينفرج من تقارب ، ويشتد البعد بين شاطئيه حتى يمتزج بالبحيرة امتزاجا ، ورأى وجه النهار قد امتُقع وأُسبغ عليه شحوب عجيب يشيع فى النفس ألماً هادئاً وحزناً فاتراً ، ولكنهما على ذلك يؤذيان النفوس . وأحس كأن كل شىء من حوله قد أدركه شىء من ذبول ، والنسيم فاتر فيه شىء من حرارة مؤذية . . والأمواج متضائلة تصطفق اصطفاقاً خفيفاً كأنما تحاول أن تشكو آلاماً خفية فلا تستطيع الجهر بما تجد إلا فى مشقة شاقة وعسر عسير . والطير تحاول أن تغنَّى ،

صافات فى السماء أو راقصات على الغصون ، ولكنها تتغنّى فاترة حتى كأن غناءها أشبه شيء بالأنين أو الشكاة ، وأشعة الشمس هادئة ذابلة تمس ما حولها فى فتور كأنها تصدر عن جذوة أوشكت أن تنطفئ ، وهى مع ذلك تحمل حرًّا رطباً ثقيلا تندَى له الجباه و يتصبب له العرق أحياناً .

كل شيء هامد خامد ، وكل شيء جامد راكد ، وفى الجو فتور لا يحتمل ونقل لا يطاق . وإذا نفس الملك تمتزج بهذا كله ، وإذا قلبه يخفق فى صدره خفقاً ضئيلاً ثقيلا ، وإذا نفسه تصطبغ بحزن شاحب ممِضّ ، وإذا هو يصبح كله حزناً وركوداً كما أن ما حوله حزن وركود . وشهرزاد أمامه مطرقة مغرقة فى القراءة كأنها لا ترى شيئاً ولا تحس شيئاً . وهى مع ذلك تختلس النظرة إلى الملك بين حين وحين تمد إليه طرفها تردّه عنه ، كأنها تراقبه حريصة على ألا يشعر أنها تراقبه .

وقد أخذ ضوء الشمس يضعف شيئاً فشيئاً ، وكأن النهار أحس برد الموت يتمشى فيه ، فجعل يرتدى من الظلمة معطفاً وحماً فاتماً ثقيلا ؛ ثم يجمد كل شيء ويخمد كل شيء ، ويقف الزورق فى مكانه كأنه شُدّ إلى قاع البحيرة بسلاسل غلاظ ثقال .

وتنهض شهرزاد فاترة متثاقلة ، وتقول فى صوت هادئ متكسر : « انظر أيها الملك السعيد فإن النعيم والبؤس دولة بين الناس ، ينعَم بعضهم ويشقَى بعضهم الآخر ، وينعم الرجل منهم أياماً أو ليالى من الدهر ، ثم يشقى أياماً وليالى أخرى ، وينعم الرجل منهم ساعة من نهار أو ساعة من ليل ثم يشقى سائر ساعات النهار ، أو سائر ساعات الليل . وقد أخذت بحظك من النعيم ، وأخذتُ بحظى منه ؛ فلنأخذ الآن بحظنا من البؤس ، ولنستقبل الآن نصيبنا من الحزن . ولنحتمل الآن عِبْئنا من الشقاء . . »

وينظر الملك فيرى — ويا هول ما يرى — ! يرى على شاطئ البحيرة من يمين وشمال شيئاً يشبه الرياض والجنات وما هو من الرياض والجنات فى شيء ، شيئاً يشبه أن يكون أشجاراً باسقة فى السماء وما هى من الأشجار فى شيء ، إنما هى أشياء يخيل إلى الملك مرة أنها الشجر ومرة أنها العمد قد ثُبِّتت فى الأرض وطالت فى السماء وامتدت لها فروع تشبه أن تكون الغصون ، ونبتت فى هذه الفروع زوائد تشبه أن تكون الورق ، وقامت على هذه الغصون وفى أثناء هذه الزوائد كائنات تشبه أن تكون الطير ، وأُسبغ على هذا كله ضوء ذابل فاتر شاحب يشبه أن يكون

لظلمة لولا أن العين تنفُذ منــه إلى ما وراءه فى كثير من المشقة والجهد والإعياء ، وخرجت من أفواه هذه الكائنات التى تشبه الطير أصوات تريد أن تكون غنـاء ؛ ولكنها لا تبلغ الجو حتى يكون بعضها بكاء وبعضها أنيناً وبعضها حشرجة كحشرجة الصريع المُحْتَضَر . هنالك يذعر الملك أشـد الذعر ، ولـكنه لا يستطيع أن يترجم عما يجد ، وإنمـا هى الرعدة تتمشى فى جسمه كله فيضطرب اضطراباً عنيفاً ، ثم تستقر تأخذ الملك بين حين وحين ، وقد انعقد لسانه واحتبس صوته وجعلت قطرات من الدمع تسّاقط على وجهــه بين حين وحين . وهو مقبل على شهرزاد يريد أن يسألها أين هو ! وماذا يرى ! وماذا يسمع ! وماذا يجد ! ولـكنه ليس فى حاجة إلى هــذا السؤال : فقد خلصت نفسه لشهرزاد ، وخلصت له نفس شهرزاد منذ وقفا معاً على شاطىء تلك البحيرة فى ذلك الجو الموسيقى الرائع وأمام تلك الأسراب من الزوارق البديعة .

لقد فهمت عنه شهرزاد . وهى تجيبه بلسان لم ينعقد ، وصوت لم يحتبس ، ووجه يستطيع أن يبين عما يجده قلبها من حزن لاذع وغيظ يملؤه الحنق ورحمة مع ذلك يملؤها الحنان : « انظر يا مولاى !

هؤلاء ضحاياك ! هذه الكائنات التى تشبه الطير وما هى بالطير أتعرفها ! إنها نفوس أولئك الفتيات اللاتى أرسلتهن إلى الموت منذ ثرت ثورتك المنكرة بالنساء فاتخذتهن أداة للهوك ووسيلة إلى إرضاء ما أفسد قلبك من غضب وما أفسد نفسك من انتقام .

تستطيع أن تحصى هذه الكائنات فسترى عددها مطابقا لعدد أولئك الفتيات اللاتى أهدرت كرامتهن فى غير حب ، ثم أزهقت نفوسهن فى غير إشفاق . فهذه النفوس قائمة فى هذه الجنة التى تشبه الجحيم ، وفى هذا الجحيم الذى يريد أن يكون جنة فلا يستطيع . إنها بائسة ، إنها يائسة ، إنها شاكية ، إنها باكية ، إن هذه الأصوات التى تسمعها تنطلق بالبؤس واليأس والبكاء والشكاة منذ أرسلتها إلى هذا المكان حتى تؤدّى عنها حسابا يوما ما . فاذرف ما تستطيع أن تذرف من دموع ، واحمل ما تستطيع أن تحمل من حزن ، واعمل ما تستطيع أن تعمل من خير ، وتجرّع ما تستطيع أن تتجرع من ندم ، وأقم على هذا كله عمرك وأعماراً كثيرة تعدله طولا ، فلن تغسل قطرة من تلك الدماء التى سفكتها ، ولن تُرضى نفسا من هذه النفوس التى أزهقتها ، ولن تمحو سيئة من هذه السيئات

التى اقترفتها إلا أن يمسَّك جناح من رحمة الله ، وينالك فضل من عفوه ؛ فإن لله فى الناس حكمة هوَ بالغها ، وأمراً هو منفذه .

ثم يرقّ صوت شهرزاد ويلين حتى كأنه رحمة كله ، وإذا هى تقول : « ومع ذلك بل من أجل ذلك قد أحببتك أيها الملك وتحدّيت عنــدك الحب والملك والموت جميعا . وما أدرى كيف أعلل هذا الحب أو كيف أفهمه ؛ فقد كنت أظن أنى أبغضك أشد البغض ، ولو لم أُزَفّ إليك لقتلت نفسى جزعاً ويأساً . وقد كنت أظن أنى أستطيع أن أردك عن ذلك الإثم المنكر الذى كنت غارقا فيه ، وما كان أحب إلىّ مع ذلك أن أنعَم بحبك ليلة ثم أذوق الموت بيدك وآتى إلى حيث أشاركـ هذه الطير فيما تعلن من بؤس ويأس وبكاء وشكاة . وقد كنت أقدِّر بعد أن ذقت حبك ونعِمت بقربك أنى سأردّ الموت عن نفسى وعن أمثالى من فتيات الدولة بما ألهيك به من قصص . وقلبى يشهد ونفسى تعلم أنى ما ألهيتك بالقصص إلا لأستأنف النعيم بحبك وأطيل السعادة بقربك ؛ فقــد كنت أثِرة أظهر الإيثار ، وكنت محبــة نفسى أزعم فداء غيرى من النساء . وكنت كلفة بإثمك البشع أريد أن أشرب كأسه من يدك

وأؤخر شرب هذه الكأس ما وجدت إلى تأخيره سبيلا .

وقد ظفرت منك بما أردت ، و بلغت من حبك ما أحببت ، فشاركتك فى سعادتك، وشاركتك فى شقائك، وقاسمتك ما أتيح لك من نعيم، وشاطرتك ما قضى عليك من بؤس ، وعصمت منك نساء الدولة على غير إرادة منى . ومن يدرى ! لعلى آثرت نفسى من دونهن بخير كنَّ يطمعن فيه و يطمحن إليه . فنى نفوس الناس وفى نفوس النساء خاصة فساد كثير وشر عظيم تخفيه صروف الحياة وخطوبها ، وتظهره محن الحياة وتجاربها . ومن يدرى ! لعل إثمك ذلك المنكر قد جعلك فتنة للعذارى كما جعلك فتنة لى . ومن يدرى ! لعل اللاتى رددت عنهن الموت قد كنّ يحسدننى على هذا الموت ، ولعلهن أن يحسدننى الآن على الحياة ! بل من يدرى ! لعل هذه الأصوات المهيبة الرهيبة التى تسمعها الآن لا تشكو منك وإنما تشكو البعد عنك والشوق إليك . ومن يدرى ! لعل هذه الشكاة الملحة المؤذية أن تكون عفواً عنك واستغفاراً لك . فنفوس الناس عامة ونفوس النساء خاصة ألغاز مشكلة معضلة قد عجزت عن حلها حتى فطنة شهرزاد . إن هذه النفس الغامضة التى نغّصت أيامك وأرّقت لياليك

لا تمتاز بشيء ، وإنما هى نفس امرأة لا أكثر ولا أقل .

املأ نفسك إذاً أيها الملك من هذا الشقاء الذى تشهده الآن كما ملأتها آنفاً من تلك السعادة التى شهدتها فى جزيرة النعيم . واستقبل ليلك وقد ملأت نفسك من البؤس والنعيم جميعاً ، فإنك لا تدرى أين يجدك الغد ، ولا عمّ يبتسم لك الصبح ، ولا ماذا تضمر لك الأحداث .

ويحس الملك كأن يد شهرزاد تمضى رفيقة فى شعر رأسه فتبعث فى جسمه طمأنينة وهدوءاً ، وفى نفسه أمناً وراحة وروحاً . ثم ينسى الملك نفسه أو تنسه نفسه . ولكنه يفيق وقد تقدم الليل وأطبقت الظلمة من حوله على كل شىء إلا ذبالة ضئيلة فى ناحية من نواحى الزورق تنشر ضوءاً هادئاً غريباً ، وصوت يعرفه ويألفه يقول : « فلما كانت الليلة الثامنة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد » .

ثم ينقطع هذا الصوت المعروف المألوف ويتصل إلى الملك صوت شهرزاد فاتراً أول الأمر ، نشيطاً بعد ذلك قليلاً قليلاً وهو يقول : « بلغنى أيها الملك السعيد أن وفدة الملك شهمان بن زهمان أقبلوا عليه حائرين ذاعرين يقولون : « إنه السحر أيها الملك ! إنه السحر الذى لا عهد به من قبل لأحد من الإنس ومن الجن ! » .

قال الملك : « نعم إنه السحر الذى لا أعرف له مبدأ ولا منتهى » .

ثم التفت إلى ابنته فاتنة كأنه ينتظر منها أن تجيب على ما قال هو وما قال القواد . ولكن فاتنة ظلت قائمة باسمة فى وجهها إشراق يصور نفساً فرحة مستريحة ، ويصور شيئاً من الإعجاب والرضا ، ويصور كثيراً من الأمل والثقة بالفوز .

فلما سمعت مقال أبيها ورأت التفاته إليها . قالت فى طمأنينة وهدوء : « إنه السحر لأنه غير مفهوم ، وسيظل سحراً ما دام سرًّا مكتوماً فإذا أزيلت عنه الأستار وفهمت مخبآته أصبح علما شائعا يشارك فيه القادرون على فهمه والنهوض بأعبائه » .

قال الملك : « ومتى يمكن أن يفهم ، وأن يكشف عن مخبآته ؟ ! »

قالت فاتنة : « بيننا وبين ذلك آماد يا أبت . فيجب قبل كل شىء أن تنجلى الغمرة ، وتنكشف الغمة ويُرَدّ المغيرون إلى أوطانهم مقهورين . ماذا أقول ! بل يجب أن يستسلم المغيرون ، وأن ينزلوا من هذا القصر نفس المنزلة التى كان كل واحد منهم يريد أن أنزله من قصره » .

قال الملك : « فأنت تريدين إذاً أن يستأسروا » .

قالت فاتنة : «ما من ذلك بدٌّ . يجب أن يستأسروا ، ثم يجب أن يذعنوا و يؤمنوا و يتلقّوا ما يملى عليهم من أصول الصلح التى يقوم عليها نظام الحكم عندهم وعندنا . فليست المسألة أن تثار الحرب ثم تخمد نارها ، و إنما المسألة أن تمنع الحرب من أن تثار أو أن تمنع الحرب إذا أثيرت من أن تصيب الأبرياء بما لا ذنب لهم فيه ولا حق لأحد أن يصبّه عليهم من الموت والدمار » .

قال الملك وقد أخذ الرضا يعود إلى قلبه ، وجعل البشر يفيض من وجهه : « هذا كثير يا ابنتى ! هذا أكثر مما كنت أرجو ! هذا أكثر مما كنت أنتظر ! هذا أكثر مما كنت أظن ! إنك لتكلفيننا أعظم مما نستطيع أن نحتمل ، وتتنقلين بنا بين اليأس والأمل و بين الخوف والأمن فى سرعة ولباقة لا قِبَل لنا بهما . ولكن أبينى يا ابنتى كيف السبيل إلى أن تبلغى من خصومك ما تريدين ، وهؤلاء قوادنا يريدون أن يقْدِموا فلا يتاح لهم الإقدام ؟ لقد وقفت خَصْمك عن الهجوم ومنعتهم أن ينالوا منا ما يحبون ، فأبلغينا منهم ما نحب ، وخلِّ بين جيوشنا و بين الهجوم . فما أظن أنك تريدين أن تتواقف الجيوش على هذا النحو دون أن يستطيع فريق أن يبلغ من عدوه شيئاً » .

قالت : « بل أنا لا أريد غير هذا يا أبت » .

ثم ابتسمت له ابتسامة ملؤها الحنان والبر وقالت : « ألم تكن تذكّرنى منذ حين بما يجب أن يستشعر قلبى من الرحمة والرفق ، لا برعيّتنا وحدها ولكن برعية هؤلاء المعتدين أيضاً ! فإن هذه الحرب ، كما كنت تقول ، لا تعنى رعيتنا ولا رعاياهم من قريب أو بعيد ؛ و إنما هى شهوة جامحة دفعتهم إلى الشر والكيد . فأردت أن ألقى شرهم بمثله ، وأن أدبّر لكيدهم كيداً مثله ؛ فما ينبغى أن نغامر نحن و يشقى الأبرياء ، وما نبغى أن يمس رعيتنا أو رعية أعدائنا سوء . و إنما الحرب بيننا و بينهم تنافس فى قوة الإرادة ، وتسابقٌ إلى الصبر على المكروه . فأينا ثبت حتى يستسلم خصمه فهو المنتصر ، وأينا سئم قبل أن يسأم عدوّه فهو المهزوم . وما على الرعية إلا أن تشهد هذا الصراع الذى تجرى أحداثه بين سادتها وقادتها لتُعْجَب بهم إن شاءت ، فقد يكون من بينهم من هو خليق بالإعجاب ، ولتسخر منهم إن أحبت ، فقد يكون من بينهم من هو جدير بالسخرية . ولكن لتأمن على أنفسها ودمائها وأموالها ومرافقها على كل حال » .

قال الملك : « مَرْحَى يا ابنتى ! ما أحسن وقع ما تقولين فى نفسى !

وما أحبه إلى قلبي ! وما أدناه إلى المثل الأعلى الذى طالما أمّلته وسموت إليه دون أن أبلغه ! . أيمكن يا ابنتى أن تبلغيه ! أيمكن أن تبلغيه وأنا حاضر أشهد فوز الخير على الشر وانتصار الرحمة على القسوة ؟ »

قالت فاتنة : « فانك تشهد هذا كله يا أبت . لن ينالنا أعداؤنا بما نكره ، ولن ننال أعداءنا بما يكرهون ، ولكنهم سيفنون قوتهم فى غير طائل ، وسيكسرون حدّتهم فى غير عناء ، وسيضيعون ما ادّخروا من عُدَّة وما هيّئوا للحرب من أداة دون أن يحصّلوا من وراء ذلك شيئاً ، وسيفقدون سمعتهم في بلدهم ، وسيفقدون سلطانهم على رعاياهم ، وسينقلب بعضهم لبعض عدوّا ، وسيصبح بأسهم بينهم شديداً »

قال أحد القواد : « ونحن أيتها الأميرة ماذا نصنع ؟ وما حاجة الدولة إلينا منذ اليوم ؟ وما قيمة جيوش لا تخوض غمار الحرب ولا تردّ عدوان المعتدى ولا تدفع غارة المغير ؟ » .

قالت فاتنة : « فإن الجيوش وسيلة لاتقاء الحرب لا لابتغائها ، وأداة لدفع الشر لا لاجتلابه . أفإن جَنَّبْتُكم الحرب وضمنت لكم السلم والعافية تضجّون وتعجّون ! من شاء منكم أن يغامر فليغامر

بنفسه لا بالأبرياء من جنده . أفضمنتم أن يقبل جنودكم على الحرب محبين لها راغبين فيها ! ألستم تعلمون فيما بينكم و بين أنفسكم أن كل واحد منهم يؤثر أن يفرغ لحياته وعمله وأهله ، وأن يأخذ نصيبه من الدنيا دون أن يعجله عنه هـذا الموت الذى تقضونه عليه لا لشىء إلا لهذه المغامرة التى تجرى مع دمائكم وتدفعكم إلى هـذه الأهوال التى تحبونها لأنكم بمأمن من آثارها ! » .

قال القواد : « فهل نفهم من ذلك أن الأميرة تعفينا من أعبائنا ، وتردنا إلى حياتنا الخاصة ، وتسرح الجيوش ، وتفرق الجند ؟ » . . .

قالت فتنة : « لا تفهموا من هذا شيئاً ، فلا أملك أن أعفى منكم أحداً ، ولا أشير على الملك بأن يعفى منكم أحداً ، ولا بأن يسرح الجيش ، ولا بأن يفرق الجند ؛ فالحرب محتملة دائماً ، والشر متوقع أبداً . وخير أن نحتاط للكوارث قبل أن تقع ، فلعل ذلك أن يمنع وقوعها . فعودوا إلى مواضعكم من قيادة الجيش واثبتوا . فمن يدرى ! لعل الملك يحتاج إليكم » .

وانصرف القواد وهم إلى السخط أقرب منهم إلى الرضا ،

و إلى المعصية أدنى منهم إلى الطاعة . فلما تفرقوا قالت فاتنة لأبيها : « لقد انصرفوا ، و إن قلوبهم لمطوية على غير الوفاء والولاء . ولكن التى عرفتْ كيف تردُّ عدوان المغير الخارجى تعرف كيف تكبح ثورة الثائرين فى داخل الوطن » .

قال الملك : « ألم يأنِ لك يا ابنتى أن تكاشفى أباك بشىء من هذه الأسرار التى عُمِّيتْ عليه وعلى أهل المملكة جميعاً ! وما أرى إلا أنها معمَّاة على أعدائنا . فانظرى إليهم حائرين ينفقون جهوداً لا تحصى ، و يحتملون أثقالا لا تستقصى ، و يرون مع ذلك أنهم ثابتون فى أماكنهم التى كانوا يريدون أن يغيروا علينا منها » .

ولم يكن الملك يقول إلا حقا ؛ فقد كانت تلك المناظر التى وصفناها آنفاً قائمة كما هى لم تتبدل : بحر مضطرب مصطخب تكاد أمواجه تبلغ السماء ، ولكنها لا تكاد تبلغ الساحل ، ورياح متناوحة متصايحة ، وسحاب متراكم متراكب ، وقطع من الجبال تدور فى الجو تلتقى لتفترق وتفترق لتلتقى ، ورعية الملك طهمان بن زهمان قد ثاب إليها الأمن وعادت إليها الطمأنينة ، وجعلت تشهد هذه المناظر الرائعة مُعْجَبَة بها راضية عنها ، متسلية بما تشهد منها ، كأنها فى ملعب من ملاعب

التمثيل ، أو فى ميدان من هـــذه الميادين التى تعرض فيها الأعاجيب .

وقد أخذ أفراد الرعية يتحدث بعضهم إلى بعض عن بدائع هذا السحر وروائعه ، ويسأل بعضهم بعضاً عن مصدره ومدبّره ، وقد سرى فيهم سريان البرق أن الأميرة هى مصدر هذا السحر وهى التى دبّرته وقدّرته ، وردّت ملوك الجن مدحورين فى البر والبحر والجو جميعاً .

وكان أفراد الرعية يسمعون عن الأميرة أحاديث مختلطة مضطربة . يعرفون جمالها الرائع وحسنها البارع ، ويعرفون فتنتها وفطنتها ، ويعرفون ذكاءها ونفاذ بصيرتها إلى ما لم تنفذ إليه قط بصائر الملوك والملكات . ولكن هذا كله كان يُلْقَى إليهم إلقاء ، فيصدّق حيناً ويرفض حيناً آخر ، ويسمع فى غير اكتراث فى أكثر الأحيان . فأما الآن وقد رأت الرعية ما رأت وشهدت ما شهدت . فأما الآن وقد كان الهول منها قيد إصبع ثم رُدَّ عنها ردّا عنيفاً ، فأما الآن وهى ترى الهول قريباً منها بعيداً عنها ، محدقا بها عاجزاً عن أن يصيبها ، فقد أصبح إيمانها بالأميرة فتنة لا تشبهها فتنة ،

وأصبح اسم الأميرة فى كل فرد من أفراد الرعية لفظاً يدل على حقيقة واقعة لا على لون من ألوان المجاز؛ فكل فرد من أفراد الرعية مفتون بالأميرة مشغوف بحبها هائم بقدرتها على ابتكار الأعاجيب .

وربما كان الملك أعظم من أفراد رعيته جميعا افتتانا بابنته وإعجابا ببراعتها وإكباراً لسحرها هذا الذى ظن به الظنون ، ثم تبين أنه لم يوجَّه إلى الشر كما تعوَّد السحرة من الجن والإنس أن يوجهوا سحرهم ، وإنما هو موجَّه إلى الخير كل الخير ، موجه إلى عصمة النفوس وحقن الدماء وإقرار الأمن وحماية الصِّلات التى تقوم بين الدول على المودة والمعروف . وهو من أجل ذلك يلح على ابنته فى عطف مرة وفى استعطاف مرة أخرى أن تكشف له عن أسرار هذا السحر ، وأن تبين له دخائل هذه المعجزات . وابنته تطاوله وتماطله ، تلطف به حيناً وتعنُف عليه حيناً آخر . والعدوّ من حول المملكة والمدينة ماض فى جهده العنيف السخيف الذى يكلفه كل جهد ، ولا يُبلغه من وراء هذه الجهود شيئاً .

وتمضى على ذلك الأيام تتلوها الأيام ، والليالى تتبعها الليالى ،

حتى انصرفت رعية طهمان بن زهمان عما كانت ترى ، وأعرضت عما كانت تشهد ، وأهملت ما كانت تخافه كل الخوف ، وازدرت ما كانت تُعجَب به كل الإعجاب ، ومضت تضطرب فى حياتها تستأنف منها ما كانت قد تركته حين ألمّتْ بها نُذُر الحرب . وكان الواحد من الجن من أهل المملكة يغدو على عمله و يروح إلى أهله و يتصرّف فى أمره كأن وطنه لم يتعرض لمحنة ولم يلمّ به مكروه ، وكأن جند العدو لا يملأ من حوله البر والبحر والجو . وما يعنيه من عدو يُفنى قوته دون أن يبلغ منه شيئاً ؟ .

فلما كان ذات يوم جلس الملك يحاور ابنته و يداورها يريد أن يعرف منها جلية هذا الأمر الغريب . وهى تلقاه بالإباء حيناً وبالدل والدعابة حيناً آخر . ولكن وزيره يدخل سعيداً متهللاً، فيحيي ثم يُؤْذِن الملك بأن سفراء العدو قد أقبلوا يلقون بأيديهم و يسألون السلم .

قال الملك : « فوجِّهْ هذا الحديث إلى التى حار بتهم فخر بتهم، فأما أنا فلست لكم بملك منذ اليوم . لقد أخذت نصيبى من الملك وتركت ما بقى منه لابنتى هذه ؛ فهى ملكتكم منذ الآن ، وهى التى ستلقى السفراء وستملى عليهم السلم كما تشاؤها هى لا كما أشاؤها أنا » .

ثم نهض الشيخ متثاقلا فضم ابنته إليه ضماً طويلاً ثم أجلسها مكانه وقدَّم إليها تحية الملوك . هنالك تقدم الوزير إلى الملكة فحياها تحية الملك ، ثم خرج فأذَّن فى القصر والمدينة والملكة بما كان من ارتقائها إلى العرش ونهوضها بأعباء السلطان ، وبأنها هى التى ستلقى السفراء وستملى عليهم شروط السلم كما تشاء .

وما أكثر ما وصفت لك يا مولاى ابتهاج المدن والممالك حين ينزل ملك عن العرش ويرقى إليه ملك آخر !. فقد ابتهج قصر فاتنة ومدينتها ومملكتها بارتقائها إلى عرش آبائها كما تعودوا أن يبتهجوا كلما تخلَّى عن عرشهم ملك وارتقى إليه ملك . ولكن ابتهاجهم فى هذه المرة كان خالصاً صفواً لا يخالطه حزن ولا يشوبه أسى .

فقد كان طهمان بن زهمان حياً بينهم ينتظرون أن يروه لم يفارقهم إلى غير رجعة ، وكان حبهم له يزيد فى ابتهاجهم بابنته ، وكان إعجابهم بفاتنة يخرج بابتهاجهم عن الأطوار المألوفة ولو أن رعية عبدت ملكا لعبدت رعية فاتنة ملكتها .

وكان طهمان بن زهمان نفسه أسعد الجن بهذا الحدث العظيم ؛ فقد كان يحب ابنته ويُعْجَب بها ويفتتن ببراعتها كما قلت ، وكان يرى ارتقاءها إلى العرش حقا وعدلا قد ردَّ السلطان إلى أهله

ووكل الأمر إلى من ينبغي أن يوكل إليه الأمر . وكان يرى نفسه أسعد من تقدمه من ملوك الجن . فقد ختم ملكه عصراً قديماً مضى بحسناته القليلة وسيئاته الكثيرة . وبدأ ملك ابنته عصراً جديداً يظهر أن الحسنات فيه ستكون أكثر جداً من السيئات ، ومن يدرى ! لعله أن يكون خيراً كله . وكان طهمان بن زهمان ناعم البال قرير العين مبتهج النفس ؛ لأنه يشهد هذه النقلة الخطيرة فى حياة الجن ، ويشهدها تتم على يد ابنته التى تؤثرها بالحب والعطف والحنان . وكان يقدِّر أنه قد أنفق ما أنفق من آلاف السنين وأنه قد أشرف من حياته على آخرها ، ولكنه مع ذلك يؤنس فى نفسه قوة وأيْدا ، ويحس أن سيُمَدّ له فى العمر حتى يرى ابنته وهى تدبر أمور الملك ، ولا يشك فى أنه سيرى من تدبيرها العجب العجاب .

وانتهت أعياد المملكة ، وآن للسفراء أن تستقبلهم الملكة ؛ فاستقبلتهم فى حفل سذج يسير لم يتعوَّده القصر ولم تتعوده الرعية ؛ فلم تقم زينات ولم يصطف الجند ولم تجلس الملكة للناس فى ذلك البهو العظيم من أبهاء القصر ، وإنما خلت إلى أبيها فى غرفته تلك التى كانت تخلو فيها إليه ، وأذِنت للوزراء وقادة الجند وساسة

الملك . فلما أخذ كل منهم مجلسه أذِنت للسفراء ؛ فلما أدخلوا عليها وتقدموا بتحية ملوكهم وسادتهم وهمّوا أن يطلبوا إليها السلم أشارت بيدها فاستمعوا لها ، فألقت إليهم هذه الكلمات فى صوت هادئ ملأ قلوبهم رهباً ورعباً ، قالت : « تعلمون أن هذه الحرب لم تثر بين دولنا و إنما أثارها أشخاص ملوككم على شخصى ؛ فلا سفارة فى هذه الحرب ولا سفارة فى هذا الصلح ؛ فعودوا إلى ملوككم موفورين ، وأبلغوهم أن من أراد منهم صلحاً فليلتمسه بنفسه ساعياً إليه لا مسفراً فيه » .

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

وامتنع النوم على شهريار هـذه المرة بعد أن انقطع حديث شهرزاد . ولكن أرقه لم يكن ثقيلا عليه ولا بغيضاً إليه فى هذه الليلة ؛ فلم يحتج إلى أن ينهض من مضجعه ، ولم يشعر بالحاجة إلى النشاط الذى يذهله عن نفسه و يشغله عن خواطره ، و إنما كان حريصاً أشد الحرص على أن يخلو إلى نفسه و يفرغ لخواطره بعد أن شغل عنها وقتاً طويلا بما مر به من الأحداث وما ألقى إليـه من الأحاديث . وكان كل همه أن يخطىء النوم طريقه إليه، وأن يبقى هو فى مضجعه وادعا مطمئنا يستعرض حياته هذه المعقدة أشد

التعقيد الملتوية أشد الالتواء ، يستحضر ماضيه البعيد والقريب ، ويحاول أن يتصور حياته فيما يستقبل من الأيام . وكذلك أنفق بقية الليل مع نفسه ناظراً بين حين وحين إلى شهرزاد وهى مغرقة فى نومها الهادئ كأنها لم تقص عليه شيئاً ولم تتحدث إليه بشىء . وكان يذكر أيامه تلك السود حين كانت امرأته تلك تخدعه عن نفسه وعن حبه وعن شرفه وتزدريه فيما بينها وبين نفسها أشد الازدراء ، تستعين على ذلك بوصائفها ، وجواريها غير حافلة بما أعطت على نفسها من عهد ، ولا آبهة لجلال الملك ولا مقدِّرة لعواقب الخيانة والغدر . وكان يذكر مرارة الانتقام وحلاوته ، ونار الغيرة تلك التى كانت تتأجج فى صدره فتحرّق قلبه تحريقاً وكانت مع ذلك برداً وسلاماً على نفسه الجريحة الثائرة .

ثم كان يذكر تلك الأيام السود التى أنفقها بعد مصرع نساء القصر نهباً مقسما بين لذة الحب وشهوة الانتقام ، يُقبل على اللهو بقلب يظهر الفرح والمرح والابتهاج والغبطة ، وفى ضميره الغيظ والحنق والبغض الذى لا يطفىء جذوته إلا الدم المسفوك . أكانت أيام يشرق فيها ضوء النهار ، أم كانت ليالى مظلمة لا يهتدى الضوء فيها إلى سبيل !

أكان فى تلك الأيام إنساناً يحس ويشعر ويفكر ويقدِّر، أم كان قوة مدمرة لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم!

ثم كان يذكر شهرزاد حين عرضها عليه أبوها الوزير وفى نفسه كثير من خوف وقليل من رجاء، وحين أقبلت إليه مع الليل تظهر حبًّا وثقة وتضمر بغضاً وخوفاً، ومن وراء ما تظهر وما تضمر حيلة واسعة وذكاء عجيب نفَّاذ.

ثم يذكر هذه الليالى المتتابعة التى شغلته فيها شهرزاد بنفسها وقصصها عن الحب والبغض، وعن الغيرة والانتقام، وعن نفسه وملكه، حتى إذا انقضى القصص ورُدّ إلى نفسه ملكا كما كان فى تلك الأيام السود رُدَّت إلى نفسه خواطرها الحمر وعواطفها الثائرة وشهواتها المضطربة المختلطة، ورُدَّ إليها قبل كل شىء هذا القلق المتصل الذى يفسد الحياة على الأحياء. ونظر فإذا هو بين نفسه هذه المضطربة القلقة الثائرة التى لا يستطيع أن يخلو إليها وبين شهرزاد هذه المحبة المبغضة الرحيمة القاسية الفاتنة المفتونة الواضحة الغامضة التى لا يعرف لها كنهاً ولا يطمئن منها إلى حال. وهو مقسَّم بين هذين النوعين من العذاب، يخلو إلى نفسه فيشقيه القلق والخوف، ويخلو إلى زوجه فيشقيه الحب والشوق إلى المعرفة

واليأس من إرضاء الحب ومن إرضاء الشوق إلى المعرفة .

ثم يذكر تلك الليلة التى آذنه فيها طائفه ذاك بأن شهرزاد ستستأنف الطب لنفسه نائمة بعد أن كانت تطب لها يقظة . و إذا هو يسمع من هذا القصص ما يسمع ، فينعم بشهرزاد نائمة و يشقى بها مستيقظة .

وتشعر هى بذلك فتريد أن تطب له فى الحالين، فتخلط يقظته بنومه وتجعله يحلم نائماً ويقظان . و إلا فأين هو الآن ! أين هو من قصره ومدينة ملكه ! أين هو من جنده وحاشيته ! أين هو من غرفته وأحراسه! ما هذا الزورق! وما هذه البحيرة التى يسبح فيها الزورق على غير هدى! كيف انتهى إليها! كيف حُمل عليها! ماذا رأى فيها ! ماذا عرف منها وماذا جهل ! أنائم هو أم يقظان ! أحالم هو أم عالم ! أعاقل هو أم مجنون ؟ ولكن ماذا ! هذا صوت حلو يبلغ سمعه . إنه صوت شهرزاد ، انها تتحدث إليه . لقد أفاقت من نومها . إذاً أين هو من الزمن ! أفى الليل هو أم فى النهار ! ! إنه يفتح عينيه و يقلبهما فى كل وجه فيرى نوراً لا يشبه النور وظلمة لا تشبه الظلمة . أنائم هو أم يقظان ! أحالم هو أم عالم ! أعاقل هو أم مجنون ! ولكن حديث شهرزاد يصل إلى أذنه ،

ما فى ذلك شك . إنها تدعوه وتلح فى الدعاء . إن صوتها لا يخلو من دُعابتها الساخرة الساحرة . إنها تنبئه بأنه ليس نائماً ولا حالما ولا مجنونا ، ولكنه يقظان عالم عاقل ، يحس نفسه كما هى ، و يحس الأشياء من حوله كما هى ، و يسمع صوت شهرزاد التى تتحدث اليه و يفهم عنها حديثها حق الفهم . ولكنه لا يكاد يطمئن الى هذا الحديث . إنه ينكر هذا الطور من أطوار الزمن الذى لا يشبه النهار كما عرفه ولا يشبه الليل كما ألفه ؛ لأنه ليس فى عالم الليل والنهار ، و إنما هو فى عالم غريب من عوالم القصص . أفِقْ يا مولاى من نومك إن كنت نائماً ، ومن يقظتك إن كنت مستيقظا ؛ فلست فى عالم الليل والنهار ، ولست فى عالم النوم واليقظة ، ولست فى عالم الحلم والعلم ، و إنما أنت فى عالم يختلط فيه هذا كله ، و يشتبه فيه هذا كله ، ولا تميز فيه إلا نفسك و إلا حبيبتك ، شهرزاد . أفق يا مولاى أو لا تفق ؛ فإن كلا الأمرين سواء . اسمع منى وتحدَّث إلىَّ أو لا تسمع منى ولا تتحدث إلىَّ ؛ فقد خلصت نفسك لى كما خلصت نفسى لك ؛ فليفرغ كل منا لصاحبه ، فقد غفل عنا كل شىء لأننا خرجنا من كل شىء و بعدنا عن كل شىء . افهم هذا يا مولاى أو لا تفهم ؛ فليس من المهم أن تفهم أو لا تفهم ،

و إنما المهم أن تتحدّث نفسك إلى نفسى وأن يصل إلى نفسى حديث نفسك سواء أحمله إلىّ الصوت أم انتهت به إلىّ نجوى الضمير .

وأنفق الملك ما شاء أن ينفق من الوقت غائباً عن نفسه وشاهداً لها ، يحس فى قوة لذة مؤلمة أو ألماً لذيذاً ، قدفنى فى شهرزاد وفنيت فيه شهرزاد ، فعرف الحب حين يبلغ أشد أطواره عنفاً ، وعرف الحب حين يبلغ أعظم أطواره رقة وليناً ولطفاً . يجد ذلك كله فى نفسه ، ولـكنه لا يحسن تصوره ولا تصو يره ولا وصفه ولا التعبير عنهُ ، إنما امتزجت نفسه بنفس حبيبته فأصبحا حبًّا خالصاً يسبح بهما زورق غريب فى بحيرة غريبة وفى عالم ليس إلى تصوره ولا إلى تصو يره من سبيل . عالم كان يقرأ عنه فى الـكتب حين كان المتصوفة يعرضون ما يعرضون من تلك الأطوار الغريبة التى لم يكن يتصورها ولم يكن يصدِّق أن إنساناً يستطيع أن يبلغها . أتكون شهرزاد هاديته إلى التصوف ومرشدته إلى الحقائق العليا و إلى عالم المعرفة الذى تطمح إليه نفس الإنسان طموحاً غامضاً وتشقى لأنها لا تبلغ منه ما تريد !

ومهما يكن من شىء فقد أخذ الملك يثوب إلى نفسه قليلا

قليلا و يجد فى هذا ألماً ممضًا ، و يحس كأنه يدفع إلى عالم لاعهد له به ، وكأن نفسه قد أصبحت غريبة فى هذا الجسم الذى تُرَدّ إليه ، وكأنه قد ارتقى فى الجو إلى أبعد ما يمكن أن يرتقى ثم أهبط فُجاءة إلى الأرض ، فكاد يختنق من سرعة الهبوط ، وكادت نياط قلبه أن تتقطع من شدة ما حُبِس عنه الهواء .

وأخذ الملك يحس كأن شهرزاد إلى جانبه تجد مثل ما يجد ، وتألم مثل ما يألم ، و يعاودها الشقاء كما يعاوده الشقاء . ثم ينظر فإذا هو إلى جانب شهرزاد قد وضع يده فى يدها ينظر إليها دهشاً وتنظر إليه دهشة ، والزورق يسبح بهما دائماً فى الماء والضوء والموسيقى والغناء . هنالك يسمع الملك صوت نفسه وهو يسأل شهرزاد وكأنه يأتى من بعيد : « أين نحن ! ماذا نسمع ! وماذا نرى ! ألا تنبئيننى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين ! » . ثم يسمع ضحك شهرزاد ساخراً ساحراً وصوتها مداعباً ملاعباً وهو يقول : « لقد رجعت إلىّ يا مولاى ، ورجعت إليك بعد غيبة طو يلة .

أنظر ! هذه شهرزاد تتحدث إلى شهر يار فى زورق من زوارق القصر على تلك البحيرة التى أشرف عليها القصر يوماً ما ؟ ومدّ

إليها وما زال يمد إليها يداً كأنه يريد أن يهوى إليها أو أن يأخذ منها شيئاً . أنظر يا مولاى ! أترى إلى هذه الأسراب من الزوارق تزينها الغصون الخضر والورق النضر والزهر البهيج ! إنها تسبح فيها كما يسبح هذا الزورق ، وفيها أزواج من الفتيات والفتيان قد نَعِموا كما نعمنا وأَلِموا كما ألمنا . وهم يعودون إلى حياتهم الهامدة الجامدة الراكدة كما نعود إليها ، وفى نفوسهم مثل ما فى نفوسنا من الحزن ، وفى قلوبهم مثل ما فى قلوبنا من الأسى . أنظر يا مولاى ! املأ عينيك مما ترى ، وأذنك مما تسمع ، ونفسك مما تشهد ، فلن يبقى لك من هذا كله إلا الذكرى . أنظر يا مولاى ! بحيرة من ماء يغمرها بحر من ضياء وبحر من موسيقى وبحر من غناء ، ويقوم عليها إلى حين قصر ملك من الملوك شقِى فيه وسعد ، ونعم فيه وابتأس ، ثم خرج منه نخرج من سعادة الناس وشقائهم ومن نعيم الناس وبؤسهم حيناً طويلاً أو قصيراً ، ثم هو يعود إليه ليستأنف فيه حظه من سعادة الناس وشقائهم ومن نعيم الناس وبؤسهم » .

قال الملك فى صوت حزين كأنه يأتى من بعيد : « أليس يمكن أن نناى عن هذا القصر إلى آخر الدهر ؟ » .

قالت شهرزاد : « ليس ذلك فى طاقة القصص يا مولاى ؛ وإنما القصص فرجة من حياة الناس تطل على عالم المثل العليا يخرج الناس منها ليعودوا إليها . هلمّ يا مولاى ! . ألا ترى أن الزورق قد انتهى بنا إلى حيث دعانا إلى نفسه منذ حين ! ألا تسمع دعاء القصر ! إنه يلح علينا فى أن نصعد لننعم كما كنا ننعم، ونأسى كما كنا نأسى » .

وتنهض شهرزاد وتأخذ بيد الملك ، وإذا هما فى ذلك البهو الذى تناءت أرجاؤه وتباعدت أطرافه وأحاطت به البحيرة من جهاته الثلاث ، وغمره ذلك الجو الغريب من الموسيقى والغناء ، وإذا شهرزاد قد أجاست الملك فى مجلسه ذاك ، وجاست إلى جانبه رفيقة به عطوفاً عليه ، تسأله بصوتها الهادئ العذب الذى يمتزج بما حوله من الموسيقى : « أيرى مولاى أن شهرزاد قد وفت بما قدّمت له من وعد ؟ »

ثم ينظر الملك فلا يملك أن يدفع صيحة منكرة ملؤها الدهش والحنق والغيظ : « ماذا ! أين أنا ؟ » ولكن رئيسة الوصائف تتقدم إليه فتحييه ثم تقول : « أرجو أن يكون مولانا قد أنفق وقتاً سعيداً » .

٧

وأوى الملك إلى مضجعه من ليلته تلك ، وأحبُّ شيء إليه أن يعود إلى ليل الناس ، فينام كما ينامون ، لا يعتاده الأرق ولا يوقظه الطيف ولا يسليه القصص النائم أو القصص المستيقظ . فنفس الإنسان سؤوم ، وقدرتها على احتمال الأعاجيب محدودة . وقد احتملت نفس شهريار من الأعاجيب أكثر مما كانت تطيق فليعد رجلاً من الناس ، وليحيَ بغرائزه الجامحة وعقله المتواضع الضئيل كما يحيون ! من له بذلك ! وما سبيله على النوم ! وما سلطانه على الأطياف ! إنه لمغرق في نومه قد فقد نفسه وفقدته نفسه . ولكن هذا صوت الطائف يبلغ أذنيه ، وهذا شيء كأنه يد الطائف يمس كتفه، وهذه الكلمة تلقى في روعة: ما أسرع ماسئمتَ قصص شهرزاد ! أسرع فإنها توشك أن تتحدث إلى نفسها . وينهض الملك مسرعاً لا يلوى على شيء ، فيسعى من غرفته إلى غرفة الملكة ، ويمر بأحراسه وبأحراس الملكة غير ملتفت إليهم ولا حافل بهم ، وينسلّ إلى غرفة الملكة رفيقاً رشيقاً حتى يأخذ مجلسه ذاك الذي تعوّد أن يأخذه كأن العهد به لم ينقطع ، وإذا

هو مصغ قد جمع نفسه كلها وضم بعض أجزائها إلى بعض كما تنضم أوراق الزهرة التى تنتظر لتتفتح أن تمسها قطرة الندى . وهذه قطرة الندى تمس نفس شهريار ؛ فهذا الصوت المعروف المألوف يقول: « فلما كانت الليلة الرابعة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد».

ثم ينقطع الصوت وتستأنف شهرزاد حديثها قائلة : « بلغنى أيها الملك السعيد أن الملكة فاتنة ردّت على ملوك الجن سفراءهم ، وأبت أن تسمع طلب السلم إلا من الذين شبُّوا نار الحرب وقد عاد السفراء إلى سادتهم مخذولين مدحورين . ولكن وزراء الملكة ورجال حاشيتها أنكروا فى أنفسهم صنيع مولاتهم بالسفراء ومن أرسلوهم، ولم يستطيعوا مع ذلك أن يجهروا بما أضمروا أو أن يعلنوا ما أسرّوا . وعرفت الملكة منهم ذلك ، فلم تسألهم عنه ولم تبادهم بشىء منه . على أن أباها طهمان بن زهمان هو الذى اجترأ عليها هذه المرة كما اجترأ عليها حين تحدت ملوك الجن ودعتهم إلى الحرب .

قال طهمان بن زهمان : « لم يبق لى من الأمر شىء يا ابنتى يبيح لى أن أتحدث إليك فيما تُبرمين أو تنقضين . بل لم يكن لى من الأمر شىء قبل أن أنزل لك عن هذا الملك الذى أنت أحق

به منى وأقدر بشبابك وحكمتك وفطنتك على تدبيره وتصريف أموره من هذا الشيخ الفانى الضعيف . فلست أتحدث إليك الآن لأن لى فى الحديث حقا يبيحه لى القانون أو تخوّلنى إياه مراسم الملك ، وإنما أنا أب يتحدث إلى ابنته . ومن حق الآباء يا ابنتى بل من الحق عليهم أن ينصحوا لأبنائهم وإن كان من العسير على الشباب الذين يستقبلون الحياة واثقين بأنفسهم وبالحياة أن يسمعوا لنصح الشيوخ الذين يستدبرون العيش شاكّين فى أنفسهم وفى العيش . فهبينى أريد أن أريح نفسى حين أراجعك فيما أصدرت من أمر . إنك ملكة يا ابنتى ، وللملوك حرمة وقدس . وما أرى إلا أنك حريصة على أن تُرْعَى حرمتك ويوفر لك ما أنت جديرة به من الإكبار . وأحسب أن أول ما يجب عليك فى ذلك هو أن تؤدى إلى غيرك ما تحبين أن يؤديه غيرك إليك . وقد كانت بينك وبين هؤلاء الملوك حرب أعلنها السفراء ، ويراد أن يكون بينك وبين هؤلاء الملوك سلم يطلبها السفراء ويقررونها . فما عدولك عن هذه الطريق المألوفة ؟ وما ابتداعك سُنّة لم يعرفها ملوك الجن فيما توارثوا من السنن والتقاليد ؟ ! .

وسيقول بعض شعراء الناس فى يوم قريب أو بعيد :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسر

وهذا اليوم لك يا ابنتى فلا تَبْطَرى ولا تأشَرى ولا تسرفى على عدوك المنهزمين وخصمك المسرورين ؛ فقد يكون يوم آخر عليك فيأشَر عدوّك كما أشِرت ، ويبطر خصمك كما بطِرت ، ويسرفون عليك كما أسرفت عليهم ، ويردون سفراءك مهينين كما رددت سفراءهم مهينين .

وشىء آخر يا ابنتى وددت لو قدّرته وفكرت فيه ؛ فقد كان هؤلاء الملوك يستطيعون أن يرجعوا عن حربك كما أقدموا عليها دون أن يُسفروا إليك أو يعرضوا عليك صلحاً ، ينتظرون أن تدور الأيام لهم بعد أن دارت عليهم ؛ ولكنهم قبلوا الأمر الواقع ومضوا على سنة الملوك من قبلهم ، فاعترفوا لك بالغلب وألقوا إليك السلم وطلبوا منك الصلح . فاحذرى وقد لقيتهم هذا اللقاء ورددت مجاملتهم هذا الرد أن يعودوا أدراجهم وأن يطاولوا ويماطلوا وينتظروا معاودة الحظ لهم ، وأن يبقى الأمر بينك وبينهم مختلطا مضطرباً لا هو بالسلم التى تستأنف فيها الصِّلات بين الأمم والشعوب ، ولا هو بالحرب التى يكون فيها الغالب والمغلوب .

وما أظن يا ابنتى أنك تريدين أن تغيرى على هؤلاء الملوك فى

ممالكهم ولا أن تغزو جيوشك كل واحد منهم فى عقر داره قوّتك لا تبلغ هذا ، وحسبك للنهاية يأبى عليك أن تعرّضيها لحرب الهجوم بعد أن عصمتها من حرب الدفاع . و إذاً فسيبقى الأمر معلقاً بينك و بين أعدائك حتى يستأنفوا الحرب أو تزهدى أنت هذه الحال المعلقة فتطلبي إليهم السلم ، ويوشك كل واحد منهم أن يرد عليك سفراءك كما رددت عليه سفراءه . و بعد ؛ فإن الملوك لا يعاملون أنفسهم هذه المعاملة ، ولا يطلب أحدهم إلى الآخر أن يذل و يستكين ويسعى طالباً للصلح ومعطياً بيده . كان ذلك يجرى فى الزمن القديم قبل أن تتحضّر الجن وتتقرر القواعد التى تنظّم العلاقات بين الأمم والشعوب و بين الدول والملوك . فأما الآن فإن نظام السفراء لم يخترع عبثا ، و إنما أنشىء لمثل هذا الأمر الذى أنتم فيه » .

قالت الملكة باسمة : « أحببْ إلىَّ بكل ما تأمرنى به يا أبت و بكل ما تشير به علىّ ؛ فأنت الملك وستظل الملك دائماً ، و إنما أنا رعية لك . و إذا نهضتُ بالأمر فإنما أنهض به لأن طاعتك علىّ واجبة ، ولأن شبابى وِقاء لشيخوختك . وكل ما قلته لى حق لاغموض فيه ولا غبار عليه لولا أنى ضامنة أن هؤلاء الملوك الذين

أثاروا حربهم ظالمين لن يستطيعوا أن يعودوا إلى ممالكهم حتى آذن لهم بهذه العودة . فإن السر الذى أتاح لى أن أحول بينهم و بين الفوز يتيح لى أن أحول بينهم و بين الإياب إلى أوطانهم . فهم معلقون بأمرى بين النصر والهزيمة : لن ينصروا لأنى لا أريد لهم أن ينصروا ، ولن يرجعوا لأنى آبى عليهم أن يرجعوا » .

قال طهمان بن زهمان. « ويحك يا ابنتى! أتستطيعين [illegible] » .

قالت : « كما استطعت أن أقفهم موقفهم هذا لا يتقدمون خطوة » .

قال طهمان بن زهمان : « إن كل أمرك غير مفهوم يا ابنتى ويظهر أنك لا تريدين أن أفهم منه شيئاً » .

قالت الملكة باسمة : « من يدرى ! لعلك تفهم منه كل شىء فى وقت قريب أقرب جدًّا مما تظن ، ولكنك تنكر على ردّى للسفراء ومعاملتى للملوك بغير ما جرى به العرف ، وحملى إياهم على ما لا ينبغى لهم من الذلة والهوان . وقد كان هذا حقًّا لو أنى أثرت عليهم حرباً ظالمة . وقد كان هذا حقًّا لو أنهم أثاروا علىّ حرباً دعا إليها اختلاف مصالح الشعوب وتباين منافعها وتقديرهم لهذه المصالح والمنافع ، سواء أكان هذا التقدير خطأً أم صواباً ، ولكنهم

أثاروا حرباً ظالمة لم تقتضها مصلحة عامة ولم تدع إليها منفعة عاجلة أو آجلة لأمة من أممهم أو شعب من شعوبهم ؛ إنما اتبع كل منهم هواه وركب رأسه وانقاد لشهوته الجامحة .

وقد كنت تذكّرنى يا أبت بأن هذه الحرب إنما أثيرت لأن هؤلاء الملوك يحبوننى ويخطبوننى ، وأنا لا أحب منهم أحداً ولا أرضى لنفسى من بينهم زوجاً . وكنت تذكّرنى بأن هذا الأمر لا يعنى رعيتنا ولا رعاياهم من قريب أو بعيد . فهذا الظلم الصارخ ، وهذا العدوان المنكر ، وهـذا الإهدار لحقوق الشعوب ، وهذه التضحية الآثمة بالنفوس التى أمر الله أن تعصم والدماء التى أمر الله أن تحقن والحرمات التى أمر الله أن تُرْعَى ، فى سبيل شهوة فردية لا تعتمد على ما يشبه الحق أو العدل ، كل هذا خليق أن يهدر حق مقترفيه فى طاعة الشعوب ، وكل هذا خليق أن يلغى حق مقترفيه فى النهوض بأمر السلطان .

فهؤلاء المعتدون عندى ليسوا ملوكا ولا أشباه ملوك ، و إنما هم عندى طغاة ظالمون . فإن للملك حقوقه ، مافى ذلك شك ؛ ولكن هذه الحقوق رهينة بواجبات ينبغى أن تؤدى ؛ فإذا ضيعت الواجبات أهدرت الحقوق .

فالسفراء الذين أقبلوا علىّ ثم رُدّوا مخذولين على سادتهم لم يكونوا سفراء ملوك يأخذو[redacted]الملك بحقه ، و إنما كانوا سفراء طغاة قد فقدوا حقوقهم على رعيتهم [redacted]فقدوا حقوقهم على نظائرهم . وما أكره أن تدور الأيام علىّ بمثل مدار[redacted]ه عليهم إن اقترفت من الإثم مثل ما اقترفوا ، واجترحت من الذنب [redacted]ما اجترحوا ، وجنيت من السيئات ما يجعلنى لذلك أهلا .

وقد تعلمت منك يا أبت أكثر مما تظن أنى تعلمت . وأول ما تعلمت منك أن آخذ ملكى بحقه ، وأن أنهض بما علىّ من واجب قبل أن أطلب مالى من حق ، وأن أبيح للشعب معصيتى والخروج علىّ و إهدار سلطانى عليه ، إذا لم أعرف له حقه ، ولم أؤدّ إليه ما ينتظر أن أؤدى إليه . فلا بأس عليك ، ولا بأس علىّ ، ولا بأس على رعيتنا من هذه الخُطة التى اتخذتها . وانظر ! فهذا وزيرنا قد أقبل ينبئنا بأن عدوّنا قد قبلوا ما فرضنا عليهم من شرط ، وهم يريدون أن ننظّم وفودهم علينا واستقبالنا لهم . »

وكان الوزير قد دخل أثناء حديث الملكة . فلما سمع آخر هذا الحديث حيّا وقال : « إن الأمر كما ترين يا مولاتى ، و إن عدوك يطلبون كيف يكون وفودهم عليك وكيف يكون استقبالك لهم ؟ »

قالت الملكة : « فكيف ترى أن يكون ذلك أيها الوزير ! »

قال الوزير : « ملوك يا مولاتى فيجب أن يُسْتَقْبَلوا كما يستقبل الملوك ، ومراسم ذلك معروفة مقررة » .

قالت الملكة وهى تضحك : « بل طغاة بغاة يا سيدى ، فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل الطغاة البغاة . تلقَّهم أنت إن شئت . أما أنا فلن ألقاهم ، ولك أن توكل بلقائهم من أحببت . فإذا مثلوا بين يديك ، أو بين يدى وكلائك نخيّرهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم بالطغيان وإهدار حقوق الشعوب . فأيهم اختار الموت فجرّعه كأسه ، وأيهم اختار الحياة — وكلهم سيختارها — وأشهد على نفسه أنه طاغية مُهْدِرٌ لحق شعبه ، فليخلع نفسه من الملك وليُلْقِ إلينا بيده ، ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به ما يشاء . ثم لا تراجعنى فى أمرهم بشىء قبل أن تنفِّذ ما قدَّمت إليك » .

وتم كل شىء يا مولاى كما أرادت الملكة ورُدَّت إلى شعوب الجن حقوقها المغصوبة ، وحريتها المسلوبة ، وتأذّنت فاتنة فى شعبها وفى الشعوب الأخرى بأن أمور الأمم إليها تُشرك فيها من الملوك والرؤساء من تشاء وكيف تشاء ، وتقيِّد ملوكها ورؤساءها

من القوانين بمـا تحب ، وتشرف على إنفاذ ملوكها ورؤسائها لإنفاذ هذه القوانين ، وتن[redacted] من الملوك والرؤساء إن خالفوا عن هذه القوانين .

وأقامت شعوب الجن يا مولاى هـ[redacted]دث أعياداً رائعة ، وأرّخت به منذ كان وما زالت تؤرخ به إلى [redacted] وجعل الجن يتنزلون ببعضه إلى الإنس بين حين وحين ، فيفهم [redacted] عنهم ذلك حيناً ويخطئون الفهم فى أكثر الأحيان . وهذا [redacted] ما نرى عند الناس من الاختلاف فى نظم الحكم ومن اضطراب العلاقات بين الرعية ورؤسائها وبين الأمم والدول .

ومن يدرى يا مولاى ؟ لعل علم الجن أن يصل إلى الناس ذات يوم أو ذات قرن واضحا جلياً لا لبس فيه ولا غموض . أو لعل عقول الناس أن ترتقى ذات يوم أو ذات قرن إلى حيث تفهم عن الجن فى غير مشقة ولا جهد . يومئذ أو قرنئذ تصلح أمور الإنسان كما صلحت أمور الجان » .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

ولم يأو الملك فى مضجعه حين عاد إلى غرفته كما كان يقدّر أنه سيفعل . ولم يذهب إلى نافذة من نوافذ الغرفة ولا إلى طنف

ن أطناف القصر ليشرف على الحديقة ويستنشق الهواء الطلق كما تعوّد أن يفعل من قبل ، وإنما عكف على نفسه يتدبر ما سمع ويستحضر ما شهد ويتذكر ما رأى ، وكأنه أنسى نفسه فى هذا العكوف ، حتى أقبلت شهرزاد وقد ارتفع النهار . فلما أحس مَقْدَمها رفع رأسه إليها دهشا وهمّ أن يتكلم ، ولكنه رأى فى وجهها الجِدّ ، وسمعها تقول فى صوت حازم باسم معاً : « شد ما هانت عليك أمور الملك يا مولاى ! ها أنت ذا تخلو إلى نفسك فى زاوية من زوايا غرفتك كأنك فرد من أفراد الناس قد فرغ للفلسفة والتفكير . ألم تحاسب نفسك على هذا الوقت الطويل الذى أنفقته فى غير شؤون الملك ! ألم يخطر لك أن للشعب حقوقاً يجب أن تؤدّى إليه ، وأن أوقات الملوك ليست خالصة لهم من دون الرعية ؟ » .

قال الملك دهشاً فى صوت كأنه يأتى من بعيد : « يا عجبا ! كأنما أسمع حديث فاتنة » .

قالت شهرزاد ذاهلة : « فاتنة ! فاتنة ! ليس هذا الاسم على غريباً ، وأحسب أن لى به عهداً قريباً » .

طه حسين

القدس سبتمبر سنه ١٩٤٢
الاسكندرية يناير سنة ١٩٤٣

أحلام شهرزاد